محمد سعيد رمضان البوطي

في الحديث الشريف والبلاغة النبوية



آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com



2011=1432

دار الفكر - دمشق - برامكة

٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

في الحديث الشريف والبلاغة النبوية

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الرقم الاصطلاحي: ٢٣٣٩,٠١١

الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-310-1

التصنيف الموضوعي: ٢١٣ (الحديث الشريف وعلومه)

٨٨ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

المحتوى



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فهذه فصول وجيزة عن الحديث النبوي، والبلاغة النبوية، كتبتها لطلاب قسم اللغة العربية من كلية الآداب في جامعة اللاذقية، عندما كنت أدرِّس مقرر الإعجاز القرآني والبلاغة النبوية في تلك الكلية، وذلك في السبعينات من القرن الماضي.

لقد كنت عظيم السعادة بتدريس هذا المقرر في تلك الكلية، وأعتقد أن الطلاب أيضاً كانوا سعداء بدراسته، فعلى الرغم من أن بضاعتهم في تلاوة القرآن والاطلاع على الحديث النبوي كانت مزجاةً، إلا أن حسّهم الأدبي كان شديد التفاعل مع كل منهما..

لقد كان مساءُ السبت من كل أسبوع، ميقاتاً محبَّباً منتَظَراً مني ومنهم على السواء، نتذوق خلاله بلاغة القرآن في عجيب سبكه وعظيم تأثيره، ونستبين جلال الربوبية في حواراته المتنوعة للإنسان، حتى إذا هيمنت علينا أجواء أُنْسِه ممزوجةً بجلال قُدسه، تحولنا إلى الحديث عن أدب النبوة، ورحنا نصغي إلى البيان الذي يتسامى على الحوشي الثقيل من نثر العرب آنذاك وشعرهم، ونستبين من خلال

ذلك صفاء نفس المصطفى صلى الله عليه وسلم ورقّة طبعه، وسموّ ذوقه، وبليغ تبيانه، ومظاهر الفرق بين البلاغة النبوية والقرآن.

خلال تلك الأمسيات الأسبوعية، توطدت معرفتي بمدينة اللاذقية، وكثير من أهلها. وما ليلةٌ تمرُّ من تلك الأمسيات في أعقاب محاضراتي القرآنية والنبوية، إلاّ وأُدعى فيها إلى سهرة في دارٍ واسعةٍ عامرة لعميد أسرة ساعي، مع ثلة من كرام الشخصيات، في مقدمتهم الدكتور بسام ساعي وإخوته، والدكتور محمد خير حلواني عميد كلية الآداب رحمه الله، والدكتور محيي الدين رمضان وبعض وجهاء المدينة..

ولقد أعجبت ولا أزال بأسرة «ساعي» هذه التي تغلغل في نفوس أفرادها حب الأدب والشعر، وتمركزت العبقرية العلمية المبدعة في أفكارهم ونفوسهم جميعاً.

لقد كانت تلك الأمسيات أسماراً، بل ندوات شعرية أدبية علمية دينية فكاهية، تمتد إلى الهزيع الأخير من الليل، ولقد كنت أحسبها من فيض الأنشطة الواسعة المتميزة التي تتحلّى بها آنذاك كلية الآداب، التي كنت أراها الدعامة الأولى بل الكبرى لجامعة اللاذقية. ولقد كنت واحداً من أقطابها المدرسين الذين واكبوا نشأتها.

والحق أنها وُلِدَت، خلافاً للمألوف، مزدانةً في مرحلة القوة والشباب!.. ولا ريب أن الدكتور محمد سليم ياسين الذي كان أول مدير لها، قد أولاها من جهده ووقته وفكره وسائر طاقاته، ما جعلها تتخطى مرحلة الضعف والطفولة، مستقرة في أوج الشباب مباشرة.

لقد كان تدريسي لمقرر البلاغة القرآنية والنبوية في كلية الآداب من

جامعة اللاذقية، وما كان يتلوه من الأسمار والندوات الأسبوعية مع ثلة من كبار وكرام العلماء والأدباء والمثقفين، خلال العقد السابع من القرن الماضي، مَعْلَمَةَ أنس متميزة أظل أذكرها ولا أنساها من حياتي، لم يغيبها عن الفكر ظلال النسيان، ولكن طوتها أحداث مفاجئة فرّقت ولم تجمع، فككت ولم تبْنِ، أفسدت ولم تصلح.

وهكذا انفضّ السامر، وطويت المرحلة، وغاض الأنس، وانقطعت سلسلة اللقاءات والمحاضرات.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

* * *

كل ما بقي لدي من ذكرى تلك الليالي، هذه الفصول التي هي خلاصة محاضراتي التي ألقيتها على طلاب تلك الكلية في الحديث النبوي والبلاغة النبوية، ولقد عثرت عليها اليوم بعد طول إعراض عنها في واحد من دفاتري التي تضم أمشاجاً من أفكاري وطائفة من محاضراتي.

وأما محاضراتي التي كنت ألقيها في البلاغة القرآنية، فقد أثبتّها في كتابي «من روائع القرآن» وهو معروف ومتداول.

لقد ذهبت تلك الأيام والليالي، وبقيت ذكراها، وأسأل الله أن يديم لي مع عزيز ذكراها، وارف ثمارها، ثواباً وقبولاً لديه، وأنا أعلم أني لا أنالهما باستحقاقي ولكني آمل أن أتلقاهما منه بمحض فضله وإحسانه.

محمد سعيد رمضان البوطي

في غرة جمادى الثانية ١٤٣٢

أولاً

الحديث النبوي

١- معنى الحديث والفرق بينه وبين ما قد يلتبس به

كلمة «الحديث» تعني في اللغة العربية ما يقابل القديم؛ وتطلق أيضاً على الكلام الذي يخاطب به الناسُ بعضُهم بعضاً.

ولكنه في اصطلاح علماء الحديث النبوي يطلق على ما صحّ عن رسول الله ﷺ، من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. فالكلمات التي تُعزى إلى رسول الله ﷺ قولاً، والتصرفات التي تُنسب إليه فعلاً، وسكوته على تصرفات الآخرين إقراراً، والمعاني التي تتلبس به وصفاً، كل ذلك يسمى في الاصطلاح حديثاً[١].

ويستعمل أرباب هذا الاصطلاح كلمة «السنة» فيريدون بها نحو ما يريدون بالحديث مع فروق دقيقة يحفل بها الفقهاء وعلماء الحديث لا غرض لنا بذكرها في هذا المقام.

كما أنهم قد يستعملون كلمة «خبر» و «أثر» ويريدون بهما المعنى الذي يراد بالحديث، وربما أطلقوهما على ما هو أعم من معنى

---

(١) ولكن دخول هذا القسم الرابع، وهو الوصف، في تعريف الحديث محل خلاف.

الحديث الذي ذكرناه، بحيث يشمل ما يضاف إلى الصحابة والتابعين أيضاً. والخراسانيون يفرقون بين الكلمتين: فيطلقون الخبر على الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ، ويطلقون الأثر على ما كان موقوفاً على الصحابي أو التابعي.

إذا تبين لك هذا، فلتعلم أن مرادنا بالحديث فيما سنتناوله في أبحاثنا التالية إنما هو الأقوال التي أثرت عن رسول الله ﷺ، وهي جزء من مضمون «الحديث» في معناه الاصطلاحي المذكور، إذ ليس لنا هنا من غرض عند الحديث عن البلاغة النبوية بما أثر عنه ﷺ من فعل أو وصف أو تقرير.

ولعلك تسمعهم يقولون: الحديث .. والحديث القدسي، وتسأل عن الفرق بينهما.. فاعلم أن المراد بالحديث ما قد أوضحته لك من قول الرسول وفعله وإقراره وصفاته. أما الحديث القدسي فهو كل قول يضيفه النبي ﷺ إلى الله عز وجل ويحكيه عنه، فصياغةُ ألفاظه وتراكيبه من النبي عليه الصلاة والسلام، ولكنَّ العزْوَ فيه إلى الله عز وجل. ولو كانت صياغته من الله مباشرة لكان قرآناً، ولو لم يكن العزو فيه إلى الله على سبيل الحكاية عنه لكان حديثاً مُطلَقاً.

مثال الحديث القدسي ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله تعالى: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنتُ خصمه خصمتُه: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حُرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفِّه أجره».

فقد تبيّن لك إذن الفرق بين كل من القرآن والحديث القدسي والحديث المطلق عن هذا القيد.

٢- كيف حُفظ الحديث وكيف تمَّ تدوينه

قلنا بصدد الحديث عن كيفية وصول القرآن إلينا، إن سبيل ذلك إنما كان كلاً من التلقي الشفهي والتدوين الكتابي.

ويقال مثل ذلك بصدد الحديث أيضاً.

إلاّ أن الوسيلةَ الأولى لضبط الحديث إنما كانت الحفظَ عن طريق التلقي، وكان للصحابة من السليقة العربية والصفاء الذهني ما يجعلهم يعتمدون على حفظ الصدور أكثر مما يعتمدون على قيد السُّطور، ولولا هذه السليقةُ الصافيةُ لما وصَلَنا شيء من شعر الجاهلية ولا معلقاتها، فضلاً عن نثر الخطباء وحكمة الحكماء وأقوالهم المأثورة.

ثم إن الصحابة كان لهم من التعلق برسول الله ﷺ، والإيمان بنبوته وبأنه إن تكلم فإنما يتكلم من مِشْكاة النبوة، ما يحملهم على بذل كل ما لديهم من جهد لحفظ ما يتلقونه من حديثه عليه الصلاة والسلام.

قال أنس بن مالك: كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث، فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه. وروى الخطيب البغدادي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جزأت الليل ثلاثة أجزاء؛ ثلثاً أصلي، وثلثاً أنام، وثلثاً أذكر فيه حديث رسول الله ﷺ[١].

ومعنى هذا الذي نقول أن الصحابة لم يكونوا يستعينون لحفظ الحديث بالكتابة في أول الأمر.. فلماذا؟

---

(١) انظر أصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب: ص ٦٧.

والجواب أن النبي ﷺ كان ينهى أصحابه في صدر الإسلام عن أن يكتبوا شيئاً مما قد يسمعونه منه غير القرآن، خشية أن يلتبس عليهم القرآن بالحديث إن هم كتبوا كلاًّ منهما. روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فلْيَمحُه».

فلما تجمّع من آي القرآن عند الصحابة قدْرٌ وفير، نبههم إلى أسلوبه وإعجازه ومظاهر الفرق بينه وبين بقية أنواع الكلام، بحيث لم يعد يُخشَى عليهم أن يخلطوا بين الحديث والقرآن؛ أذن لهم النبي عليه الصلاة والسلام عند ذلك بكتابة الحديث، وأخذ كل من أوتي حظّاً من القدرة على الكتابة يكتب ما قد وعاه صدره من حديث رسول الله ﷺ.

وفي ذلك يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء سمعته عن رسول الله ﷺ ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضى؟ فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال: اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاّ حقّ[١].

ويقول أبو هريرة: ما من أصحاب النبي ﷺ أحدٌ أكثرَ حديثاً عنه مني، إلاّ ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب[٢].

وهذا أصح مذهب في التوفيق بين الأحاديث التي تمنع من كتابة

(١) رواه أبو داود والدارمي.
(٢) رواه البخاري.

السنة، والأحاديث التي تحبذها. يقول الرامهرمزي في كتابه المحدث الفاصل:

«وحديث أبي سعيد: «حرصنا أن يأذن لنا النبي ﷺ في الكتابة فأبى» أحسب أنه كان محفوظاً في أول الهجرة حين كان لا يؤمَنُ الاشتغال به عن القرآن»[١]. وقال البيهقي وابن الصلاح وغير واحد: لعل النهي عن ذلك كان حين يُخاف التباسه بالقرآن، والإذن فيه حين أمن ذلك[٢].

وفي عهد التابعين، وهم الذين رأوا الصحابة ولم يروا النبي ﷺ، شاعت كتابة الحديث، فأقبل إلى كتابته كثير منهم، ومن أشهرهم الحسنُ البصري، والشعبيُّ، وسعيدُ بن جبير، وعبد الرحمن بن حرملة، وهمّام بن منبه..

إلا أن الكثير من هؤلاء كانوا يجمعون مع الحديث ما أُثِرَ من أقوال الصحابة وفتاواهم، فلما تولى الخلافةَ عمرُ بن عبد العزيز، كتب إلى علماء الأمصار وحفاظ الحديث يأمرهم بجمع الحديث مجرداً عن غيره. فكتب إلى أبي بكر بن حزم، وكان في المدينة: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم والعلماء. ونهض أبو بكر بن حزم بما كلفه به عمر بن عبد العزيز، إلا أنه لم يفرغ من عمله في ذلك إلا بعد وفاة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ثم إنه أخذ يظهر بين المشتغلين بالحديث من هو ضعيف الفهم أو

(١) انظر أصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب.
(٢) الباعث الحثيث: ص ١٣٢.

سيئ الحفظ أو من يتستّر بالإسلام ويُبطن الكيدَ له، فنجم عن وجود هؤلاء ظهورُ أحاديثَ نُسبت إلى رسول الله ﷺ دون أن يكون للحفاظ المحققين علم بها، فرأوا أن من واجبهم - حفظاً لأحاديث النبي ﷺ - أن ينبهوا الناس إلى هذه الأحاديث المدسوسة، وأن يكشفوا لهم عن حال رواتها، من ضعف في الذاكرة، أو سوء في القصد، أو زندقة في القلب.

ثم وضعوا للحديث قواعد راسخة، كما ضبطوا فن الرواية بشروط دقيقة قاسية من شأنها أن لا تدع أي ثغرة قد يَتسلل منها إلى حديث رسول الله ﷺ ما هو مكذوب عليه.

ولا يفوتُك أن الأمرَ الذي اقتضى ضبطَ هذا الفن بالقواعد والشروط، هو الأمر ذاته الذي اقتضى ضبطَ العربية ولسانها بالقواعد والأحكام.

وسنَعْرض في هذه المقدمة لبيان شيء من هذه القواعد إن شاء الله.

ولم يلبث هذا النشاط أن تطور صُعُداً في طريق من التنظيم والتنسيق. فبعد أن كان أهل الحديث يَجْمعون الأحاديث المختلفة في الصحف والكراريس، دون تنظيم أو تنسيق، أصبحوا يرتبون الأحاديث على الأبواب وحَسَب المواضيع. إلا أن الكثير منها كان يضم مع الحديث، الكثيرَ من فتاوى الصحابة وأقوالهم، كما يتجلى ذلك في كتاب الموطأ للإمام مالك.

ثم رُئيَ أنْ تُفرَدَ أحاديث النبي ﷺ في مؤلفات خاصة، لا يمتزج بها غيرُها من أقوال الصحابة وفتاواهم.

وفي خلال القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ظهرت مدوَّناتٌ

لحديث رسول الله ﷺ مختلِفَة في الطريقة والمنهج وكيفية الاستقصاء. وهي في مجموعها تنقسم إلى ما يسمى بالمسانيد، والصحاح، والسنن، والمعاجم. وسأشرح كلاًّ منها بكلمة موجزة وأعرّفك عليها أو على نماذج منها، وأحيلك في تفصيل ذلك كله إلى المراجع الخاصة بهذا الفن:

(المسانيد) هي المدوَّنات التي اتَّبع أصحابها في استقصاء الأحاديث، ما رواه كل صحابي عن رسول الله ﷺ بقطع النظر عن المواضيع والأبواب المختلفة، فأحاديث المسانيد منسَّقة حسب أسماء الصحابة واحداً إثر آخر، لا حسب الموضوعات وتقسيمها إلى أبواب.

وأول من ألف المسانيد أبو داود الطيالسي **(١٣٣ - ٢٠٤هـ)** وأشهر المسانيد وأوفاها وأوسعها مسند الإمام أحمد بن حنبل **(١٦٤ - ٢٤١هـ)** وهو مطبوع متداول.

وهذه المسانيد خالية من الأحاديث الموضوعة، إلا أنها لا تخلو من أحاديث ضعيفة سرعان ما يتبينها الباحث بواسطة النظر في أسانيدها وطرقها.

(الصحاح) كتب اقتصر أصحابها على رواية الصحيح فقط من حديث رسول الله ﷺ، فهي مصنفة حسب ترتيب الأبحاث والمواضيع، لا حسب أسماء الصحابة كما هو الشأن في المسانيد. وكان أولُ من صنف في الصحاح الإمامَ أبا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ - ٢٥٦هـ). ثم تلاه من بعده الإمامُ مسلم بن الحجاج القشيري (٢٠٤ - ٢٦١هـ).

وقد قامت لهذين الكتابين شهرة كبرى ومكانة عظيمة في صدور المسلمين في كل عصر، إذ كانا أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، لما امتاز به كل منهما من دقة في الرواية وحيطة في انتقاء الصحيح وشدة في تتبع القيود والشروط، وقد اشتهر اسم «الصحيحين» عَلَماً لهذين الكتابين الجليلين.

على أن صحيح الإمام البخاري يعتبر في الدرجة الأولى من الحيطة والضبط، يليه في الدرجة صحيح مسلم. إذ كان البخاري يشترط لقبوله رواية المحدث عمن قد أخذ عنه أن تثبت معاصرته له ولقاؤه به زيادةً على شروط العدالة والضبط التي سنتحدث عنها إن شاء الله.

أما مسلم فكان يشترط المعاصرة وحدها، بعد تأكده من توافر الشروط الأخرى، إذ كان يعتبر رواية أحدهما عن الآخر دليل اللقاء.
وهو اعتبار سليم ووجيه بعد ثبوت العدالة والصدق. غير أن البخاري كان أكثر شدةً في الحيطة والحذر(١).

(السنن) تعتبر كتب السنن امتداداً للصحاح ولطريقتها في الجمع

(١) لا يوهمنَّك خلافَ هذا الذي أجمع عليه علماء هذا الشأن، ما يعمد إليه أناس لا علم لهم بشيء من فن مصطلح الحديث ولا الجرح والتعديل، من محاولة التشكيك ببعض ما هو مثبت في الصحيحين أو أحدهما، تخبطاً وعلى غير بيّنة. فإنما قصارى قصدهم التشكيك أياً كانت وسيلته.. إبعاداً لهذين المصدرين عن مجال الاحتجاج بهما في ترسيخ أحكام الشريعة الإسلامية.
إنهم ينطلقون من قاعدة: الغاية أولاً، واختلاق الوسيلة إليها ثانياً.
وهو في الحقيقة تشكيك منهم في صدق كلام رسول الله (ص) ولكنهم اتخذوا من التطاول على كل من البخاري ومسلم سبيلاً إلى ذلك.

والتأليف، فكل منها رتبت أحاديثه على المواضيع والأبواب لا على أسماء الصحابة.

إلاّ أن السنن تفترق عن الصحيحين بأن مؤلفي السنن لم يشترطوا الاقتصار على الصحيح بل أخرجوا الصحيح والحسن والضعيف في بعض الأحيان، ولكنهم بينوا ذلك وربما ألمحوا إلى أسباب الضعف إن اقتضى الأمر.

وكتب السنن أربعة إن جردتها عن الصحيحين، وهي:

١- سنن أبي داود السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥هـ) وكان أبو داود قد كتب خمس مئة ألف حديث انتخب منها أربعة آلاف وثمان مئة حديث ضمّنها كتابه. وقد بين أبو داود منهجه في كتابه فقال: «ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه، وما كان فيه وهن شديد بيّنته».

٢- سنن الإمام الترمذي (٢٠٩ - ٢٧٩هـ) واسمه أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، وقد سمى كتابه «الجامع». وقد أخرج فيه - رحمه الله - الصحيح وما دونه من الحسن والضعيف والمنكر، ولكنه بيَّن الضعيف ووجه ضعفه والمنكر وسبب نكارته، وبيَّن الثقات من المتروكين في السند الذي يرويه.

٣- سنن الإمام النسائي (٢٥١ - ٣٠٣هـ)، واسمه أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب الخراساني النسائي. وكان قد صنف كتاباً أسماه «السنن الكبرى» وقدمه إلى أمير الرملة فقال له: أكلُّ ما فيها صحيح؟ فقال: فيها الصحيح والحسن وما يقاربهما. فقال له:

فاكتب لنا الصحيح منه مجرداً، فاستخلص منه «السنن الصغرى» وسماها «المجتبى من السنن» وهي التي بين أيدينا اليوم والتي يطلق عليها سنن النسائي.

وإذن فسنن النسائي أقل الكتب بعد الصحيحين حديثاً ضعيفاً وراوياً مجروحاً[١].

٤- سنن الإمام ابن ماجه (٢٠٩ - ٢٧٣هـ) واسمه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني. وهو كغيره من أصحاب السنن لم يلتزم إخراج الصحيح فقط، بل جمع إليه الحسن والضعيف أيضاً، إلا أن نسبة الأحاديث الضعيفة بل الواهية في سننه تعتبر أكثر منها في بقية الكتب السالفة الذكر، وإن كانت غير خافية على علماء الحديث بواسطة أسانيدها وأسباب الضعف الواضحة فيها.

وجملة الأحاديث الواردة في سنن ابن ماجه (٤٣٤١) حديثاً. والمزيد فيها على مجموع ما رواه أصحاب الكتب الخمسة السابق ذكرها (١٣٣٩) حديثاً.

هذه هي كتب السنن، وإذا أضفت إليها الصحيحين؛ أي صحيح البخاري وصحيح الإمام مسلم، أصبحت كتباً ستة.

واعتماداً على هذا الاعتبار، يُجْمِل العلماءُ كتب السنن والصحاح بقولهم : الكتب الستة. وهي الكتب الأولى المعتمدة في الحديث، وأصحها كما قد علمت صحيحا البخاري ومسلم.

---

(١) السندي على سنن النسائي: ١/٣، وانظر كتاب أصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب: ص ٣٢٥.

(**المعاجم**) وأشهرها المعجم الكبير والصغير والأوسط للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (... - ٣٦٠هـ). ويقوم ترتيب المعاجم على نحو مما يقوم عليه ترتيب المسانيد، مع فارق الاعتماد هنا على ترتيب حروف المعجم.

وقد أدار الطبراني معجمه الكبير على أسماء الصحابة حسب ترتيب حروف المعجم، فاشتمل على نحو خمس مئة وعشرين ألف حديث. أما معجمه الأوسط والصغير، فقد أداره على أسماء شيوخه حسب حروف المعجم أيضاً. ولا ريب أن فيها الصحيح والضعيف والواهي، إلا أن اقتران كل منها بالإسناد وأسماء الرواة يكشف الصحيح منها عن غيره.

٣- أهم أقسام الحديث من حيث درجات الصحة والضعف

قلنا إنه ظهر بين المشتغلين بالحديث من قد اتصفوا بسوء الحفظ أو سوء الطوية والقصد، فظهرت بسببهم أحاديث نسبت إلى رسول الله ﷺ دون أن يكون لعلماء الحديث علم بها.

فاقتضاهم الأمر أن يضبطوا سبيل الرواية عن رسول الله ﷺ بضوابط وقيود، وأن يضبطوا المقبولين في الرواية عنه ﷺ بشروط وصفات لا بد أن تتوافر فيهم.

وقد تم لهم من ذلك إنشاء قواعد علمية تألف منها علم «مصطلح الحديث»، وكان لهذا العلم أهمية عظمى في نفي الخبث والأكاذيب والأحاديث الضعيفة والمنكرة عن أن تتسلل إلى حيث يمكن لها الامتزاج بالأحاديث الثابتة الصحيحة. بل كان لهذا العلم أهمية بالغة في شأن الرواية ومنهج البحث التاريخي عموماً، حتى أصبح جميع

علماء التاريخ والأدب لا يَرْوُون خبراً أو حادثة إلا عن طريق سلسلة الرواية والإسناد مهما طال السند أو قصر.

وبذلك يُبْرِئ الراوي ذمته مما قد يكون في الخبر من دسّ أو كذب أو ضعف، إذ إن الباحث المحقق الذي لم يَفُتْه الاطّلاع على علم الرجال والجرح والتعديل يستطيع أن يتبين الإسناد الصحيح من غيره، كما يستطيع أن يتبين الثغرات التي قد توجد في الرواية بناء على ما قد علمه من قواعد هذا العلم. ولذلك كانوا يقولون: من أسند فقد أسلمك.

ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه القواعد ودراستها، ولكنا نستعرض أقسام الحديث التي تكونت بناء على هذه القواعد.

وجملة الأقسام الكبرى للحديث محصورة فيما يلي:

١- الحديث الصحيح.

٢- الحديث الحسن.

٣- الحديث الضعيف.

٤- الحديث الموضوع.

الحديث الصحيح:

فالحديث الصحيح هو الذي اتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن مثله بدون شذوذ ولا علة، إلى منتهاه.

فالإسناد يتكون من الأشخاص الذين يتناقلون الحديث إلى مصدره الأول .

واتصالُه يعني أن لا تقعَ فجوة انقطاعٍ في سلسلة هؤلاء الأشخاص .

والعدلُ هو كل من لم يرتكب معصيةً من المعاصي الكبيرة، ولا ثابر على معصية من المعاصي الصغيرة.

والضبط هو الحفظ والوعي مع سلامة الذاكرة .

والشذوذ هو أن يروي الرجل حديثاً على نحو يخالف فيه من هو أقوى منه وأضبط. كالحديث الذي رواه أبو داود والترمذي بسنده عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إذا صلى أحدكم ركعتي الفجر فليضطجع على يمينه» قال البيهقي: انفرد عبد الواحد من بين الثقات بهذا اللفظ، وإنما يروي الناس هذا من فعل النبي ﷺ لا من قوله.

والعلة هي أن يوجد في السند وصف قادح له، كأن يكون أحدُ أفراده غيرَ موثوق أو ضعيفَ الحفظ، أو يثبت عدمُ معاصرته لمن رَوَى عنه..

فإذا كان الحديث خاضعاً لهذا التعريف والقيود، سمي حديثاً صحيحاً. وهو ينقسم بعد ذلك إلى قسمين:

١- حديث آحاد.

٢- حديث متواتر

فالحديث الآحاد هو الذي رواه فرْدٌ عن مثله عن مثله إلى منتهاه، أو رواه اثنان عن اثنين .. إلخ أو ثلاثة .. أو أربعة.

وحكمه أنه يفيد الظن بمضمونه ولا يفيد اليقين، أي لا يكفر منكر

ما قد تضمنه حديث الآحاد، ولكنه يُفسَّق إن كان الحديث صحيحاً، ولكن يجب العمل به في الأحكام السلوكية، حتى وإن لم يتم الجزم بصحته، لأن الأحكام الشرعية يكتفى في أدلتها بما يورث الظن بصحته.

أما الحديث المتواتر، فهو ما رواه جمع كبير من الناس عن جمع مثلهم إلى مصدر الحديث بحيث يحيل العقل إمكان اجتماعهم على الكذب. وأهمُّ ما يجب أن يُراعى في ذلك اتصالُ السند، على هذا النحو من الكثرة الوافرة في كل حَلْقة، إلى مصدر الخبر، دون انقطاع.

ولم يحدد العلماء عدداً معيناً لهذا الجمع، وإنما مقياسه، هذا المبدأ. فكل جمع يحيل العقل اتفاقهم على الكذب يعتبر عدده هو الكافي في ذلك.

وحكمه أنه يفيد العلم القطعي بمضمونه، ولذا يجب العمل به كما يجب الاعتقاد بموجبه.

ولكن يجب أن يلاحَظَ أن العبرة في حد التواتر المذكور بالنسبة إلى أحاديث النبي ﷺ إنما هو بالنظر إلى طبقة الصحابة ثم التابعين، ثم تابعي التابعين. أما ما بعد هذه العصور الثلاثة فلا يراعى فيه ذلك لأن الأحاديث دونت إذ ذاك وتناقله الناس بعدئذ عن طريق التدوين لا عن طريق الرواية والإسناد.

مثال الحديث المتواتر قول رسول ﷺ: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». فلقد روي هذا الحديث بطرق كثيرة في كل من عصر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين بحيث يحيل العقل إمكان اتفاقهم جميعاً على الكذب.

ومنه حديث انشقاق القمر الذي وقع معجزة لرسول الله ﷺ، عندما طلب منه المشركون ذلك، فقد وردت بذلك أحاديث كثيرة بطرق مختلفة بلغت مبلغ التواتر، أورد الحافظ ابن كثير قسماً كبيراً منها في تفسيره، عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ٥٤/ ١-٢].

ومصدر التواتر العدد الكبير الذين رأوا انشقاق القمر إلى قسمين منفصلين، من أصحاب رسول الله ﷺ، فرووه لمن بعدهم، وهكذا.

وكان ذلك في مكة قبل الهجرة.

- الحديث الحسن:

هذا، وإذا كان الحديث نازلاً إلى أدنى مراتب الصحة بحيث لو تجاوز ذلك الحد في النزول خرج عن حدود الصحة - سمّي حسناً. وإذن فيمكننا أن نعتبر الحديث الحسن حديثاً صحيحاً ولكن من الدرجة الثانية، وذلك بأن يكون في رواته من لم يبلغ من الضبط أو العدالة الدرجة القصوى، ولكنه يسمى مع ذلك عادلاً وضابطاً في الجملة.

- الحديث الضعيف:

الحديث الضعيف هو كل ما لم تتوافر فيه شروط الحديث الصحيح بمعناه العام الذي يشمل الحسن أيضاً؛ كأن يكون حبلُ إسناده غيرَ موصولٍ إلى النبي ﷺ ، ويسمى عندئذ مقطوعاً أو منقطعاً أو مرسلاً؛ حسب كيفية الانقطاع، والجهة التي انقطع فيها السند، وعدد الرواة الذين سقطوا منه.

أو كأن يكون بين رجال سنده من هو غير موثوق أو غير حافظ أو غير كامل العدالة.

أو كأن يكون متن الحديث شاذاً أي مخالفاً لما ترويه سائر الأسانيد الأخرى، كالمثال الذي ذكرناه.

وللضعيف أنواع كثيرة، ولكل منها اسم خاص به، ولكنا لا نطيل في استقصاء ذلك وشرحه لضيق المجال.

وحكم الحديث الضعيف أنه لا يُعمَل به في شؤون الاعتقاد ولا في قضايا الأحكام. أما في الأخلاقيات وفضائل الأعمال التي ثبتت عليها أدلة وبراهين أخرى فالصحيح أنه لا مانع من اعتماده وروايته، لأن الاعتماد عليه في هذا المجال لا يزيد على أن يكون تأكيداً لما هو ثابت بأدلة وبراهين قاطعة أخرى، على أن لا يكون شديد الضعف، وأن لا يوهم الراوي أو المستدلُّ به أنه صحيح أو حسن.

- الحديث الموضوع:

الحديث الموضوع في اصطلاح المحدثين هو: ما نسب إلى رسول الله ﷺ اختلاقاً وكذباً مما لم يقله أو يفعله أو يقرّه.

والواضعون أقسام: فمنهم الزنادقة، وقد كان الذي يحملهم على وضع الأحاديث زندقتهم ورغبة التلبيس على المسلمين وقصد التشكيك في الحقائق الاعتقادية. ومنهم طائفة من الزهاد المتعبدين كانوا يحسِبُون أنهم يُحسنون بذلك صنعاً، فكانوا يضعون الأحاديث في الترغيب والترهيب، وفي فضائل الأعمال ليعمل بها الناس.

وكان بعض هؤلاء الجهلة يقول - إذا سئل عن سبب صنيعه هذا-: نحن ما كذبنا على النبي وإنما كذبنا له. قال ابن كثير في كتابه (اختصار علوم الحديث): وهذا من كمال جهلهم وقلة عقلهم وكثرة فجورهم وافترائهم، فإنه عليه السلام لا يحتاج في كمال شريعته وفضلها إلى غيره.

ثم إن الحديث الموضوع يتميز عن غيره بكثير من الدلائل؛ منها إقرار الواضع بذلك، كالأحاديث التي وضعها ميسرة بن عبد ربه الفارسي في فضائل سور القرآن؛ فقد قال له أحد المحدثين: من أين جئت بهذه الأحاديث: من قرأ كذا فله كذا؟ فقال: وضعتها أرغِّبُ الناسَ بذلك في القرآن[١].

ومن ذلك ركاكة ألفاظه أو فساد معناه أو مخالفته للمعقول أو مخالفته لصريح القرآن. ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن الجوزي في كتاب «الموضوعات» بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً وصلّت عند المقام ركعتين!!..

ومن ذلك أن يرد في السند اسم أحد من الوضاعين الذين كشفتهم كتب تراجم الرجال.

وبالجملة فإن ذكر السند يعتبر أقوى ميزان للكشف عن قيمة الحديث.

ومن ثم فقد أتيح لقواعد علم الحديث وللمؤلفات التي دونت في الجرح والتعديل - وهي قواميس من نوع فريد وضعفت لضبط أحوال

(١) انظر شرح تدريب الراوي : ١٨٤ - ١٨٥ .

الرجال كتلك التي وضعت لضبط الكلمات - أن تكشف عن جميع ما قد تسلل إلى حديث رسول الله ﷺ من الموضوعات وأن تضبطها بأسانيدها وتكشف عن دلائل وضعها.

وليس هذا فقط، بل تجرد كثير من العلماء لجمع الأحاديث الموضوعة وتدوينها في مؤلفات خاصة، ومن أهم هذه المؤلفات «تذكرة الموضوعات» لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي (٥٠٧هـ)، و «الموضوعات الكبرى» لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (٥٩٧ هـ) وهو كتاب يقع في أربع مجلدات، و «اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» للحافظ السيوطي (٩١١ هـ).

٤- موازين الجرح والتعديل وأهمية هذا العلم في ضبط الرواية:

وسأذكر لك من ذلك مقتطفات وخلاصات سريعة، والقصد منها أن تُلِمَّ بأهمية هذا العلم الذي هو أبرز خصائص حضارتنا الإسلامية، وأن تدرك أنه المنهج العلمي الوحيد الذي وُضِع ميزاناً للخبر الصحيح وسبيلاً للوصول إليه.

ويرجع مولد هذا العلم - كما قد حدثتك - إلى عامل واحد هو تنبّه علماء الحديث النبوي إلى أن ثمة من يحاول أن يدس في حديث رسول الله ﷺ ما ليس منه، فوضعوا قواعد كبرى في هذا الصدد نجملها فيما يلي:

أولاً) أصحاب رسول الله ﷺ كلهم عدول، فلا داعي للبحث في تراجم الرواة منهم، والصحابي هو من رأى رسول الله ﷺ مسلماً بعد نبوته وبقي مسلماً إلى وفاته. ولا تتنافى هذه القاعدة مع ما هو معلوم من تفاوت منزلتهم.

ثانياً) يجوز على التابعي ما يجوز على الناس كلهم من الصدق والكذب والعدالة والجرح. والتابعي هو من لقي أحد أصحاب رسول الله ﷺ. ولذلك فقد كان أئمة الرواية من التابعين يُحجمون عن الأخذ من رواية أحد التابعين حتى يطمئنوا إلى أنه ثقة في التحديث.

فإن تبين لهم عكس ذلك لم يتوقفوا في إشهار أمره بين الناس، لكي يكون الناس على حذر من أخذ الحديث عنه. قال عبد الرحمن بن مهدي: «سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن أنس عن الرجل يُتَّهم بالكذب - أي هل ننشر أمره بين الناس - فقالوا: انشره فإنه دين».

ثالثاً) لا تثبت عدالة راوٍ إلا بنص شهادة عدلَيْن عليها، أو بأن تستفيض عدالته بين الناس كمالك والأوزاعي والشافعي وأحمد بن حنبل..

رابعاً) يقبل تعديل الشاهد للراوي من غير أن يُذكر سببُ التعديل ودلائله، ولكن لا يقبل التجريح له إلا مقروناً بذكر السبب. ذلك لأن سرد أسباب العدالة يطول؛ إذ هي كثيرة .. أما سبب الجرح فقد يكون واحداً فلا يشق على الشاهد ذكره.

خامساً) إذا اختلف النقاد في حال أحد الرواة، فعُدِّل من قبل البعض وجرِّح من قبل آخرين، فالجرح هو المقدم احتياطاً؛ لأن المُعدِّلَ ينفي والجارحَ يثبت، والمُثبتُ مقدم على النافي لأن الأول يعتمد على زيادة علم لم يطلع عليها الثاني.

سادساً) تقبل رواية من ثبتت توبته من الفسق، إلا أن يكون مُوجب

الفسق كذباً في الرواية عن رسول الله ﷺ فلا تقبل توبته في اعتماد روايته مهما حسُنت طريقته وحاله.

سابعاً) لا تقبل رواية من ثبت أنه يتساهل عند سماع الحديث أو إسماعه، كمن لا يبالي بالنوم عند السماع أو يحدث دون الرجوع إلى أصل مصحح.

ثامناً) تصنف ألفاظ التعديل في ترجمة الراوي وفق المراتب التالية، بدءاً من الأعلى فما دونه:

أ- ثقة / متقن / ثبت / حجة / ضابط يعتمد حديثه

ب- صدوق / محله الصدق / لا بأس به

جـ- شيخ. (يكتب حديثه للنظر والتدقيق فيه)

د- صالح الحديث / صدوق إن شاء الله / أرجو أن لا بأس به (يكتب حديثه ويعرض للدراسة والتحقيق)

وتصنف ألفاظ الجرح في ترجمة الراوي وفق المراتب التالية، بدءاً من أدنى درجات الجرح فما فوق:

أ- لين الحديث (يكتب حديثه للدراسة والتحقيق).

ب- ليس بقوي (يكتب حديثه للدراسة والتحقيق).

جـ- ضعيف الحديث (يكتب حديثه للدراسة والتحقيق).

د- متروك الحديث / كذاب / واهٍ (لا يكتب حديثه ولا يؤخذ به).

وأخيراً، إليك أهم الكتب التي ألفت في الجرح والتعديل:

من أقدم ما ألف في هذا الفن كتاب «معرفة الرجال» ليحيى بن معين (٢٣٣هـ)، وكتاب الضعفاء للإمام البخاري (٢٥٦هـ).

ومن أبرز الكتب المعروفة والمتداولة اليوم في هذا الفن كتاب (ميزان الاعتدال) للإمام الذهبي (٧٤٨ هـ)، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٨٥٢ هـ) ويقع في اثني عشر مجلداً، ولسان الميزان له أيضاً ويتضمن تراجم نحو (١٤٣٤٣) راوياً.

* * *

وبعد، فإن لك أن تعلم باطمئنان ويقين أن هذا العلم الجليل، منهج علمي فريد للدراسات التاريخية عامة وفن الرواية بصورة خاصة؛ اختصت به الحضارة الإسلامية من بين الحضارات الإنسانية أجمع.

وقد اصطبغت بهذا المنهج البحوثُ التاريخيةُ والأدبية في مكتبتنا العربية، بحيث لا تكاد تقرأ خبراً في كتاب أدبي أو تاريخي من كتبنا العربية الأصيلة إلا وتجد بين يديه مدخلاً لسند من الرواة قد يمتد إلى سطرين. وربما تضايقْتَ من هذا المدخل الذي لا يعنيك في الظاهر، ولكن اعلم أنه حصيلة فن من أهم الفنون الإسلامية التي أبدعت منهج بحث علمي للوصول إلى خبر يقيني.



دراسة عامة للفرق بين أسلوبي القرآن والحديث

لا يتسع المقام في هذه الدراسات الموجزة لتفصيل القول في الفرق بين أسلوبي القرآن والحديث، ولكنا سنوجز البحث في ذلك بما يفي بالمقصود من دراساتنا هذه ولو على سبيل الجملة.

إن خلاصة ما يمكن أن يقال من الفرق بين أسلوبي القرآن والحديث، هي كل ما يمكن أن يقال من الفرق بين القرآن وأي كلام عربي آخر مما قد يتصف بالبلاغة والبيان، وليس لخصوصية النبوة التي يمتاز بها حديث رسول الله ﷺ أي مدخل لتحوير أو تعديل هذا الفرق.

وسيتضح ذلك خلال دراستنا لمظاهر هذا الفرق، فلنستعرض هذه المظاهر بشيء من التحليل واحداً إثر آخر:

أولاً - بروز الطبيعة البشرية في الحديث:

قلنا في معرض الحديث عن إعجاز القرآن: إن من أبرز مظاهر إعجازه، ما يمتاز به من ظهور جلال الربوبية في آياته. فأنت مهما تلوت من سوره وآياته تَجدْ نفسك أمام معان لا يمكن أن تنبعُ من الطبيعة البشرية على اختلافها.

وقد شرحنا ذلك بما لا مجال لتكراره ههنا[١].

---

(١) انظر كتاب من روائع القرآن ص ١٨١.

ونقول الآن: أما الحديث النبوي فإنه مهما كان مشرقاً بنور النبوة، ومهما كان ذلك متجلياً في أسلوبه وخطابه؛ يظل مصطبغاً بالطبيعة البشرية، وخاضعاً لانعكاسات المشاعر الإنسانية.

فأنت عندما تقرأ شيئاً من حديثه عليه الصلاة والسلام لا تلبَثُ أن تُحِسَّ فيما تقرأ بنَبَضات شعورٍ إنساني تشيع في جميع أقواله وتعليماته على اختلافها. وهذه الصفة التي تشيع في حديثه، عليه الصلاة والسلام، تجعله يخضع مع كلام غيره من الناس لقدر مشترك من السيما والانطباع، مهما ارتقى حديثه - عليه الصلاة والسلام - فوق كلام الآخرين في الفصاحة والبيان.

وآية ذلك أنك لا تأمن أن يلتبس عليك كلام رسول الله ﷺ بشيء من كلام عمر بن الخطاب أو غيره من الصحابة مثلاً؛ إذ القدر المشترك بين الكلامين، وهو ظهور الطابع البشري فيهما، من شأنه أن يتغلب على فرق الدرجة البلاغية التي يمتاز بها حديثه عليه الصلاة والسلام.

أما القرآن، فأنت على يقين (بعد أن تأنس إليه وتتعرف أسلوبه) من أنه لن يلتبس عليك مع غيره من كلام البشر؛ لأن فرق ما بينهما، وهو ظهور سلطان الربوبية في الأول وطابع البشرية في الثاني، يكفي لإبراز حاجز كبير من الفرق بينهما، حتى لو لم يكن ثمة فروق أخرى.

ولأعرض لك الآن أمثلة من حديث رسول الله ﷺ يتجسد فيها هذا المعنى الذي أوضحته لك.

١- روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن النبي ﷺ أنه قال في

معرض خصومة رفعت إليه: «إنكم تختصمون إليّ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر فأقضي له على نحو ما أسمع. فمن قضيت له من حق مسلم شيئاً فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يَذرْها».

٢- روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «تضمَّن الله لمن خرج في سبيله [لا يُخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليَّ ضامنٌ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة][1]. والذي نفس محمد بيده ما من كَلْم يُكلَم في سبيل الله إلاّ جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِم، لونُه لون دم وريحه ريح مسك. والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين، ما قعدتُ خلافَ سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سَعةً فأحمِلَهم ولا يجدون سَعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفس محمد بيده لوددْت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل».

٣- روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أن امرأة من بني مخزوم سرقت، فأهم قريشاً شأنها، فكلّم أسامةُ رسولَ الله ﷺ في شأنها، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟! ثم قام فاختطب فقال: أيها الناس إنما أهلك الذين كانوا قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم

---

(١) ما بين المعكوفتين حديث قدسي، ارجع إلى تعريف الحديث القدسي فيما مضى. والمستثنى في قوله «إلا جهاداً في سبيلي» محذوف تقديره: إلا كونه جهاداً في سبيلي، و «إيماناً» معطوف على «جهاداً».

الضعيف أقاموا عليه الحد!.. وايْمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها».

٤- روى مسلم في صحيحه، ومالك في موطئه، أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، إنا إن شاء الله بكم لاحقون. وددت أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أوَلسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ، فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعدُ من أمتك يا رسول الله؟ قال: أرأيت لو أن رجلاً له خيل غرٌّ محجلة[1] بين ظهري خيل دُهم بُهْم[2]، ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء وأنا فرط لهم على الحوض، ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال. أناديهم: ألا هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً».

إذا أمعنت النظر في هذه الأحاديث الأربعة؛ لمست فيها إشراق النبوة، ولا ريب، منبعثاً من الأسلوب والمضمون. ولكنك تلمس أيضاً أن كلاً من الأسلوب والمضمون يقوم على أساسٍ من الطبيعة البشرية والمشاعر الإنسانية.

ففي **الحديث الأول** تلاحظ أن المعنى يدور حول محور واضح هو تأكيد الطبيعة البشرية التي يتصف بها النبي عليه الصلاة

---

(١) الخيول الغراء هي التي لها بياض في جبينها، والمحجلة هي التي تمتاز ببياض في أقدامها.

(٢) الدهم البهم الشديدة السواد.

والسلام، مهما سمت درجته وارتفع قدره عند الله تعالى. فهو إن حكم بين الخصوم فاعتماداً منه على البينات والقرائن الملموسة، لا اعتماداً على غيبٍ يطلع عليه أو شعور يمخرُ إلى أعماق قلبه. ومن أجل ذلك، لا يمكن أن يتحول الباطل إلى حق وإن قضى هو به اعتماداً على ظواهر الأدلة والبينات، ولا يتحول الحق إلى باطل وإن ظنه هو باطلاً وقضى بأنه باطل.

وكما تلمس هذا الطابع من خلال معنى الحديث، فإنك تلمس هذا الطابع ذاته في أسلوبه أيضاً. انظر إلى ضمير المتكلم وهو يتكرر في نسق الحديث، وانظر إلى جملة: «فأقضي له على نحو ما أسمع» تلاحظ أن المشاعر البشرية تكمن وراء الصياغة والأسلوب.

وفي الحديث الثاني تلمس هذه الحقيقة مرة أخرى، من خلال كل من الأسلوب والمحتوى. انظر إلى صياغة القَسَم: والذي نفس محمد بيده، تجد طابع البشرية بل طابع العبودية لله فيه أتم ما يكون ظهوراً. وانظر إلى معنى التمني في قوله عليه الصلاة والسلام: لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل.. إلخ، تجد هذا الطابع ذاته بارزاً فيه. وأنت تعلم أن معنى التمني من أخص مستلزمات البشرية والضعف الإنساني بقطع النظر عن الصياغة التي تؤديه أو المضمون الذي يتعلق به.

فإذا تجاوزت الأسلوب إلى المعنى الذي يتضمنه، لاحظت فيه هذا الطابع ذاته، فإن أبرز ما فيه من المعاني إنما يدور حول ما يتمناه النبي ﷺ من أن يتاح له الخروج على رأس كل سرية للقتال في سبيل الله، بل أن يتاح له أن يغزو ويستشهد مرات متتالية، طمعاً في نيل ما يعلمه من الأجر العظيم الذي ادخره الله تعالى للمقاتلين في سبيله.

وهذا المعنى يضع الحديث كله، بما يتضمنه من الحديث القدسي الذي أشرنا إليه، وما يتلوه من الأخبار عن مدى مثوبة الجرح الذي يصاب به المجاهد في سبيل الله (وهو معنى يستضيء كما ترى بنور النبوة) ضمن إطار من المعنى البشري بأبرز ما فيه من مزايا وخصائص.

والحديث الثالث يكشف لك عن ثلاثة مشاهِدَ كلٌّ منها مظهرٌ بارز للطبيعة البشرية التي تنهض عليها حقيقة النبوة.

المشهد الأول: غضب رسول الله ﷺ من سعي أسامة بالوساطة لديه أن يشفع للمرأة السارقة.. والروايات المفصِّلةُ تشرح المزيد من غضب رسول الله ﷺ من هذه الوساطة. وتجد هذا المشهد في الاستفهام الإنكاري الذي قابل به النبي عليه الصلاة والسلام رجاء أسامة، ثم في إسراعه إلى المنبر ودعوة الناس إلى المسجد وتحذيرهم من هذه البادرة الخطيرة.

والمشهد الثاني: استثارةُ عِبْرةِ التاريخ وأسبابِ هلاك الأمم، والاعتمادُ عليها في التحذير من الإقدام على مثل هذا العمل. وهي شأن من يخضع بشكل قسري لنظام الحياة وسنن الكون ولا يسعه أن يستعلي فوقها أو يتحرر من سلطانها، بل هو دائر في فلكها ومتصل بسيرتها وقانونها.

والمشهد الثالث: تلك الكلمات التي جسد فيها النبي ﷺ أعلى درجة من درجات الخضوع لحكم الله وشرعه، وهي قوله: وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .. فإنك لتلاحظ في هذا التعبير قمة الانقياد الإنساني لحكم الله تعالى وتشريعه، ومن ثم فإنك

لتلاحظ فيه المعنى البشري في حياة النبي ﷺ بما يستتبعه من عاطفة الأب تجاه أولاده ومغالبة النفس أمام السعي لتنفيذ أمر الله عز وجل.

وفي الحديث الرابع تزداد هذه الحقيقة ظهوراً وتكاملاً. ففي الفقرة الأولى منه، وهي قوله: السلام عليكم دار قوم مؤمنين إنا بكم إن شاء الله لاحقون؛ يتجلى القدر المشترك بين النبي عليه الصلاة والسلام وسائر الناس، وهو الخضوع لسلطان الموت وحكمه، وذلك من أخص سمات البشرية ومستلزماتها..

وفي الفقرة الثانية، وهي قوله: وددت أنا قد رأينا إخواننا .. إلخ؛ يتجلّى جانب آخر من الطبيعة البشرية في كيانه عليه الصلاة والسلام، وهو الجانب العاطفي الذي يتمثل في اشتياقه عليه الصلاة والسلام إلى أن يرى أولئك الذين سيأتون من بعده يؤمنون برسالته ونبوته ويقتفون أثره ويستنّون بسنته .. وانظر إلى التعبير عنهم بقوله: إخواننا، كم يحمل من مشاعر التشوق في القلب، وإشارة الوحدة في الجنس وحوافز الثبات على النهج!.. وأحاديث رسول الله كلها سائرة على هذا المنوال مغموسة بالطبيعة البشرية.

وهكذا فقد تبين لك أن من أخص سمات الحديث النبوي - لدى المقارنة بينه وبين القرآن - أنه مطبوع بالطابع البشري، وأن نبضَ المشاعر الإنسانية يظل سارياً فيه. وقد علمت بأن القرآن خال عن هذا كله، فأنت لا تقع في آية من آياته على نبضة من نبضات الضعف البشري أو على أي معنى مما من شأنه أن ينعكس من المشاعر البشرية، بل هو مطبوع دائماً بجلال الربوبية ورهبة الألوهية، وقد مرَّ بيان ذلك وتحليله عند الحديث عن إعجاز القرآن فارجع إليه إن شئت.

ثانياً - موقع الحديث من القرآن موقع الشرح من المتن:

يعتمد الحديث النبوي في أسلوبه على تفصيل ما أجمله القرآن، وإيضاح ما أبهمه، وتقييد ما أطلقه. فالقرآن إنما يعالج كليات المسائل والأحكام، ثم تأتي السنة لتطبق كلياتها العامة على الوقائع والجزئيات، ولتفسرها على ضوء التفاصيل والصور المختلفة مذيّلة بشروطها وقيودها التي كانت مَطويَّةً في جوامع كلم القرآن.

ونقول بتعبير آخر: إن معاني الحديث النبوي لا تأتي مجردةً مطلقة، بل من شأنها دائماً أن تكون وثيقة الصلة بقيود الزمان والمكان والأشخاص والأحوال. فهي لذلك تأتي ممزوجة بطابع البيئة والتقاليد والأعراف، بقطع النظر عن موقفها من هذه الأعراف موافقة أو رفضاً.

على حين أن القرآن - كما قد رأيت - قد تنزل مطلقاً مجرداً عن صبغة الزمان والمكان التي من شأنها أن تعطيه طابع البيئة، وعن قيود الأشخاص والأسماء التي من شأنها أن تحصره في أمة بعينها أو لقوم بخصوصهم. فجاء بذلك متحرراً من طابع البيئة، مطلقاً عن قيود أمة أو قوم بخصوصهم. وقد مر بيان ذلك وتحليله فيما مضى[١].

إن جميع الأحاديث التي رويت عن رسول الله ﷺ إنما هي حصيلة أقوال أو تصرفات انبثقت من حوار مع أصحابه، أو أسئلة طرحت عليه، أو وقائع وأسفار وغزوات قام بها في حياته، فكان لا بدّ أن ينعكس إليها - في نطاق كل من الأسلوب والمضمون - ذيول

(١) الإحالة هنا، إلى كتابي: من روائع القرآن.

السائلين، وقيود الأحوال، ولون الظروف والوقائع، وإطارات الحوادث والأسباب. وكل ذلك من شأنه أن يَنْزِل من عمومات القرآن وكلياته منزلة الشرح والبيان والتطبيق.

وإليك بعض ما يسمح به المجال من الأحاديث شاهداً على ما نقول:

١- روى البخاري ومسلم عن معاذ ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإنْ هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

٢- روى البخاري ومسلم عن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني. ثم قال: يا حكيم، إن هذا المال خَضِرَةٌ حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفسٍ بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفسٍ لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى.

٣- روى الحاكم وابن مردُويهْ أن رسول الله ﷺ أرسل إلى معاذ يعزيه في ابنه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد؛ فأعظمَ الله لك الأجر وألهمك الصبر، ورزقنا

وإياك الشكر. فإنّ أنفسنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا من مواهب الله عز وجل الهنيّة وعواريه المستودعة، نُمتَّع بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى. وكان ابنُك من مواهب الله الهنية وعواريه المستودَعة، متَّعك به في غِبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كثير. فاصبر ولا يُحبِط جزعُك أجرَك فتندمَ. واعلم أن الجزع لا يردّ شيئاً ولا يدفع حزناً. وما هو نازل فكأن قد. والسلام».

٤- الأحاديث الأربعة التي ذكرناها فيما مضى..

لن أطيل عليك في تحليل هذه الأحاديث على ضوء ما قد ذكرته لك.. ولكن أمعن النظر فيها، وتأمل في صياغة أساليبها، والسياق الذي اقتضى كلاًّ منها، تجد أن من أبرز خصائص الحديث التي تفترق بها عن القرآن أنه وثيق الصلة بعنصر الزمان والمكان، والأشخاص والأحوال والأحداث، وأنه تفصيل لمجمل القرآن وشرح لمبهماته وحل لمشكلاته. وقد نص القرآن على هذه الخصيصة للحديث، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٤].

ثالثاً - خلوه عن خصائص الأسلوب القرآني:

علمت فيما مضى عند حديثنا عن خصائص أسلوب القرآن أنه يمتاز بخمس خصائص. ولقد شرحناها شرحاً وافياً إذ ذاك، فلتعلم أن من أبرز مظاهر الفرق بين أسلوب القرآن والحديث أنك لا تكاد تجد في الحديث شيئاً من تلك الخصائص الخمس.

فالنظم البديع - وهو أول هذه الخصائص - لا تلمسه في غير

القرآن. أما الحديث فنثر كبقية النثر، مرسل في أغلب الأحيان عن السجع ونحوه، له شَبَهٌ كبير بنثر العرب من الصحابة وغيرهم، حتى إنه قد يلتبس بفصول من كلام الآخرين لولا ضوابط الرواية وعناية الحفاظ، ولكن له رُواءً وإشراقاً لا تجدهما في غيره، وسنشرح ذلك فيما بعد إن شاء الله.

وكذلك الخصائص الأخرى وهي: التداخل والتكرار والجريان على مستوى واحد، وانطواؤه على معان متفاوتة لجميع الأفهام والعصور؛ كلها مزايا اختص بها القرآن، وليس منها في الحديث ما يكون من الوضوح بحيث يعتبر مزية وسيما له.

فتداخل الأبحاث فيه غير متصور، لأن الحديث إنما هو كلمات ومقاطع قالها النبي ﷺ في أوقات متفرقة حسب مناسبات وأحداث، أو أسئلة واستفتاءات، يضاف إليها خطب جامعة ألقاها النبي ﷺ في مناسبات مختلفة. وإنما يتصور التداخل في فصول طويلة متصلة من الكلام.

وكذلك التكرار وجريان الحديث على مستوى واحد من السمو والبيان. فالتكرار مفقود في الحديث إلا أن يتكرر معنى من المعاني على لسانه عليه الصلاة والسلام لتكرار السؤال عنه، ولحاجة الصحابة في بعض الحالات إلى ذلك.

وحديثه عليه الصلاة والسلام، وإن كان أعذَبَ حديث عربي بعد القرآن وألصقه بمجامع القلوب، لا يشترك مع القرآن في كونه يسير على مستوى واحد من السمو البياني رغم اختلاف مواضيعه وأبحاثه.

وستجد أن الحديث أنواع؛ فمنه ما يسمى بجوامع الكلم وهي

التي تعتمد على الحكمة الباهرة مجموعة في أقصر عبارة. ومنه المعاني القائمة على التمثيل والتشبيه، ومنه الخطب والمواعظ المرسلة، وستجد أن بينها تفاوتاً في الروعة وجمال الديباجة، وإن كانت تنزع إلى قدر مشترك من الإشراق البلاغي بل السحر البياني.

وجملة القول في الفرق بين الحديث والقرآن أن شيئاً من مظاهر الإعجاز في القرآن لا يتجلى في الحديث، على الرغم مما يتسم به من علوّ وإشراق وسموّ بيان.

وإذا أدركت هذا الذي قلناه، ازددت يقيناً بأن القرآن كلام الله عز وجل، وليس لمحمد عليه الصلاة والسلام أي مدخل في إنشائه أو إنشاء جملة منه، وإلا لاقتضى الأمر أن يتمتع النبي عليه الصلاة والسلام بازدواج يكاد يبلغ مبلغ التناقض، في الحديث وأسلوب الخطاب.

وإنه لأيسر على العقل أن يؤمن بأن القرآن إنما هو كلام الخالق عز وجل - كما يقول هو بذاته - من أن يتصور ما لا يقبل العقل له معنى ولا هضماً: أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يتكلم آناً فيأتي بما يألفه العرب من أساليب العربية والبيان، ثم يتكلم آناً آخر بما ليس بينه وبين الطابع البشري أي نسب.



ثانياً

البلاغة النبوية : دراسة وتحليل

مقدمة في معنى البلاغة:

يعرف علماء العربية البلاغة بقولهم: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته. أي أن يصاغ الكلام على نحو يَبلغُ به المتكلم أقصى ما يريد بيانه من المعنى للقلب والمشاعر، مستوحياً من طبيعة الحال وعقلية المخاطبين وظروفهم، بشرط أن يتوفر في نظم الكلام الاتساقُ وجمالُ اللفظِ والتعبيرِ.

فالبلاغة إذن وصفٌ لحالة معينة يجب أن تتوافر بين اللفظ والمعنى.

والفصاحة وصف للكلمة والصياغةِ وأداةِ التعبير عموماً، بقطع النظر عن المدلول والمعنى.

إلا أن البلاغة تعتبر - كما قد رأينا - أخصَّ من الفصاحة؛ إذ إنك لا تستطيع أن تحكم على نص بالبلاغة إلا إذا كان قد توافر فيه جمال الصياغة وحسن اختيار الألفاظ، أي إلا إذا توافر فيه معنى الفصاحة.. وعندئذ يُنظر: فإن بلغ به المتكلم أقصى ما يراد بيانه من المعاني والمشاعر فهو كلام بليغ، وإلا فهو فصيح فقط.

أما فصاحة الكلام فأعم، إذ رُبَّ كلام يتصف بالفصاحة لجمال ألفاظه وحسن سبكه، ولكنه يتقاصر عن درجة البلاغة لعدم وفائه بالمعنى المطلوب.

وهكذا، فإن كل بليغ من الكلام فصيحٌ بدون شك، ولكن ليس كلُّ فصيح من الكلام بليغاً.

ولعلّ أجمع تعريف للبلاغة - بناءً على هذا الذي أوضحته لك - ما اعتمده الرُّمّاني من أنها إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

ثم إن لتحقيق وصف البلاغة في الكلام سبلاً وأصولاً كثيرة.. ولكنّ مردّها جميعاً - كما يقرر الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز - إلى معرفة الكيفية التي يجب أن تصاغ الجملة على وفقها للوصول بها إلى شِغاف المعنى وأعماق القصد، من تقديم وتأخير .. وتنكير وتعريف .. وتقييد وإطلاق .. وحصر وتعميم .. واختصار وإسهاب.. ووصل وفصل.. ثم من اختيار أقرب الألفاظ المترادفة إلى حقيقة المعنى المطلوب.

ذلك لأن الجملة الواحدة تُصاغ بعدَّة أشكال، فيكون لكل شكل منها معنى خاص تدلّ عليه، كقولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق. وكقولك: جلس زيد، وقعد زيد، واطمأنت بزيد الأرض، وكقولك: مكث زيد، وأقام زيد، واستوطن زيد ... إلخ.

وإنما البليغ هو من يعرف لكل جملة من هذه الجمل وأشباهها موضعها، ويستعملها حيث ينبغي.

ووجه الصعوبة في تحقيق معنى البلاغة أن مزية الكلمة لا تثبت لها دائماً، بل هي تظهر وتختفي حسب المقام وتنوع المعنى ومدى اختلافه. فرب جملة يحسن فيها استعمال الاسم الظاهر بدلاً من إعادة الضمير وإن اقتضى ذلك تكرار الاسم. فإذا استعملت الجملة بالطريقة ذاتها في مكان آخر أصبح ذلك قبيحاً لا يؤدي الغرض المطلوب، وأصبح المتعين أن تكني عن الظاهر المتكرر بضمير يعود إليه.

ومن هنا ، كانت لبلاغة الكلام درجات كثيرة يتفاوت الناس فيها بين صاعد وهابط، إذ كلٌّ يتحقق منها بالقدر الذي امتدت إليه ملكته وثقافته العربية، ولكنها تصل في درجاتها العليا إلى حد الإعجاز الذي يتقاصر عنه الجهد الإنساني مهما استقامت الملكة واتسعت الثقافة.

ولقد شرحنا أسباب ذلك وتحليله في صدر حديثنا عن إعجاز القرآن من كتاب «روائع القرآن».

وحديثنا الآن عن البلاغة النبوية، إنما هو التفاتٌ إلى نموذج سام فريد للكلام العربي البليغ يمكن أن يُعتبر مادة درس وتحليل للبلاغة في صورة من أبرز صورها الممتازة، وإن كانت غير معجزة.

ثم هو - من جانب آخر - امتدادٌ لحديثنا عن إعجاز القرآن والكشف عن دلائله.. فقد علمتَ أن القرآن إنما وصل إلينا من الطريق الذي وصل إلينا منه الحديث، وهو النبي ﷺ، ولو كان القرآن خاضعاً في بلاغته وروعة بيانه لِقُدُرات البشر وطاقاتهم لاقتضى ذلك أن لا تجد بينه وبين حديث رسول الله ﷺ أي تفاوت

أو فرق، إذ إن الحديث النبوي يعتبر نموذجاً ممتازاً للبلاغة العربية، وإذن لانبثقت من ذلك شبهة تَعْرِض للفكر، وهي أن مصدر كل من القرآن والحديث ربما كان واحداً وهو رسول الله ﷺ، بدليل أنهما نسق واحد من الكلام.

ولكنا سنجد، عند دراستنا الآن للبلاغة النبوية في حديثه عليه الصلاة والسلام، مزيداً من الفرق الذي أوضحناه بين أسلوبي القرآن والحديث، سنجده بشكل غير مباشر عند تحليلنا للبلاغة النبوية. وسنجد أن هذا الفرق يتمثل واضحاً في مظاهر كثيرة.. ولا ريب أن هذا الفرق يعتبر دليلاً جديداً على أن القرآن هو كلام الله عز وجل وأن نصيب رسول الله ﷺ منه لم يكن أكثر من أن يرويه لنا بأمانة.

وإذ قد انتهينا من دراسة مظاهر الفرق بين القرآن والحديث، فلنلتفت بعد ذلك إلى دراسة الحديث النبوي من حيث القيمة البلاغية التي فيه، وموقعه من سائر كلام العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وفنونه وأصنافه، وما يمكن أن يرجع إليه من الخصائص والسمات التي قلما تجدها في غيره.

ولنتابع دراسة هذه العناصر واحداً إثر آخر:

أ- القيمة البلاغية لحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام:

إذا ما وضعنا القرآن جانباً، فإنا لا نشك في أن حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، يعتبر ذروة ما انتهى إليه كلام العرب بلاغة وروعة وإشراقاً؛ خلا من التكلف المسجوع والحوشي الثقيل، وهما آفة الكلام العربي في عصره؛ تنزه عن الاختصار مع الحاجة، والتطويل بدون طائل، وقلما سلم هذا الميزان باستقامة لغيره.

إذا شبّه أو مثّل التقط أقرب الأشباه وألطفها دون تقعير ولا تعقيد.

وإذا نصح أو أرشد، صاغ نصائحه حِكَماً مرسلةً في ألفاظ مضيئة كالنجم يبدو عليها جلالُ النبوة وأثرُ الإلهام وحلاوةُ الصدق.

ومع ذلك كله فهو يرسل أحاديثه فيضَ الخاطر وعفوَ البديهة وبذلتَ الوقت، دون سابق تحضير ولا تفكير.

وقد وصف الجاحظ حديثه ﷺ فقال:

«هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثرت معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٣٨/٨٦] كيف وقد عاب التشديقَ، وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السُّوقي؛ فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشُيّد بالتأييد، ويُسّر بالتوفيق !..

هو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامعين إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلّت له قدم، ولا بارت له حُجة، ولم يَقُم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبذُّ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجّ إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلَج إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يُسهب ولا يحصر.

ثم لم يسمع الناسُ بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل

وزناً ، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ »[١].

ب- موقعه من سائر كلام العرب:

للعرب في جاهليتهم نثر لم يبلغ مبلغ الشعر في الرواية والانتشار، ولا ارتفع إلى شأنه في معالجة الأحداث والمشكلات والتعبير عن المقاصد والوجدان. إذ كان أول فخرهم بالشعر، وأَعْرَضُ ميادين المنافسة عندهم ميدانُ القريض. فكان - من أجل ذلك - أبقى على الزمن وأشد التصاقاً برغبة الرواة والحافظين.

ومع ذلك فقد أحصى تاريخ الأدب العربي شيئاً من هذا النثر، وهو نزر يسير بالنسبة لما قد وعاه التاريخ من شعرهم. ذلك لأن الرواة - كما يقول الزيات - لم يُعنوا من النثر على كثرته إلا بما علق بالذهن لنفاسته وبلاغته وإيجازه، كالأمثال والحكم الوصايا[٢]..

ولقد كان هذا النثر يسير في محتواه مع أخلاق البداوة وأعراف الجاهلية، ويسير في نهجه وأسلوبه مع ما قد عرف من قسوتها، فهو قوي اللفظ ولكنه يتكئ على كثير من حوشي القول، متين التركيب ولكنه على الغالب سطحي الفكرة.

فلما بُعث رسول الله ﷺ، واستضاء غسق الجاهلية بنيِّرات كلامه، أصبح للنثر بعد ذلك شأنٌ جديد، وارتقى شيوعه وامتدت روايته إلى مرتبة الشعر بل تزيد!..

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ: ١٨/٢.
(٢) تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات : ١٧.

وإنما سبب ذلك، الموقعُ الذي احتله حديث رسول الله ﷺ بين سائر النثر العربي. وقد كان مردّ هذه المكانة التي احتلها إلى الأمور التالية:

أولاً) تحرر ألفاظ الحديث النبوي - كما قلنا - من حوشي القول ومُسْتَرْذَل التشبيه أو التركيب. فهو صلى الله عليه وسلم لم يتأثر في ذلك بطبيعة البداوة وقسوة البيئة، تلاحظ ذلك لدى المقارنة بين أحاديثه عليه الصلاة والسلام وسائر كلام العرب في أواخر العهد الجاهلي.

وقد استظهر الجاحظ هذه المقارنة في كتابه البيان والتبيين عندما عرض لنا معنىً جاء في الشعر العربي ثم جاء هو بذاته في الحديث النبوي، وقد اعتمد كل منهما على تشبيه يُبرز الفارق الكبير بينهما في ذوق التعبير ولطف التشبيه ورقة الصياغة:

قال رسول الله ﷺ: الناس كأسنان المشط ليس لأحدهم فضل على أحد إلا بتقوى الله[١]، وقد جاء هذا المعنى نفسه على لسان الشاعر العربي عندما قال:

سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذي شيبة منهم على ناشئ فضلاً

يقول الجاحظ: إذا حصّلت على تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النبي ﷺ وحقيقته عرفت فضل ما بين الكلامين[٢].

وللعرب في جاهليتهم حِكَمٌ تمتاز بتكلّف التركيب وتقعّر الصناعة أكثر مما تمتاز بغزارة المعنى واجتماع أطرافه. وفي الحديث النبوي

---

(١) رواه الديلمي: عن أنس بن مالك.

(٢) البيان والتبيين : ٢/ ٢٠.

حِكَمٌ اجتمع فيها حسن التأليف وسلاسة اللفظ مع غزارة المعنى وتماسك أطرافه.

تقول الحكمة العربية: التوبة تمحو الحوبة !..

ويقول رسول الله ﷺ: الإسلام يجبّ ما قبله !..

ويقول عليه الصلاة والسلام: التائب من الذنب كمن لا ذنب له!..

تأمل الفرق بين الحكمة العربية والحديث النبوي، تجد في أولهما تكلف الصناعة وكدّ الذهن في اختيار اللفظ، حتى إنها لتلفت النظر إلى ألفاظها وإلى تجاور الحاءين فيها أكثر مما تلفت النظر إلى مضمونها والمعنى الذي سيقت من أجله.

وتجد الحكمة النبوية مطبوعة في ألفاظها بطابع السليقة، مسوقة وراء عفو الخاطر، في صياغة محكمة من الألفاظ تيسر للذهن بلوغ شغاف المعنى المراد من أيسر طريق ولا تُشَتِّتُه عنه بين تعاريج الألفاظ وصناعة التزويق والتأليف.

ثانياً) ليس الحديث النبوي مجرد وعاء للحكمة وصادق المعنى، وإنما هو إلى ذلك ذيل لنور الكوكب القرآني وامتداد لهدي الوحي السماوي. فهو كلام مؤيد من تنزيل رب العالمين؛ صاغ لسانُ النبوة ألفاظَه وتنزل وحياً من السماء معناه.

ولئن كان فيه الكثير مما هو من خالص فكر النبي واجتهاده أو شعوره ووجدانه، فما كان الله ليدع شيئاً من الباطل أو اللغو يتسلل إلى فكره ووجدانه بعد أن اختاره سبيلَ وحيه إلى الأرض وواسطة شرعه إلى الناس.

فكان للحديث من هذا الجانب موقع آخر في الرفعة وعلو المكانة بين سائر النثر العربي إذ ذاك. وحسبك أن النثر العربي إذ ذاك كان ثمرة بيئة وأصداء أعراف وانعكاس بداوة، وأن الحديث النبوي إنما كان صدى لتعاليم كتاب الله وخُطَّة رشد نحو تحقيق أسمى معاني الإنسانية المطلقة.

ثالثاً) ما تضمنه الحديث النبوي من الإبداع في صياغة بعض الجمل، بل بعض الألفاظ: «فلقد صاغ رسول الله ﷺ جملاً واقتضب ألفاظاً كثيرة لم تُسمَع من العرب قبله ولم توجَد في متقدَّم كلامها، وهي بعدُ من حسنات البيان، لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها وقوة دلالتها وغرابة القريحة اللغوية في تأليفها وتنضيدها، وكلها قد صار مثلاً وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي»[1].

من أمثلة ذلك قوله: «مات حتْفَ أنفه»، أي على فراشه. وقد روي عن علي كرَّم الله وجهه أنه قال: «ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ، وسمعته يقول: مات حتف أنفه، وما سمعتها من عربي قبله».

ومن ذلك قوله في وصف الحرب: «الآن حمي الوطيس» والوطيس في أصل معناه التنور. وقوله في الصلح الذي بُنِيَ على فساد: «هدنة على دَخَن»، والدخن تغير الطعام بما قد أصابه من الدخان في حال طبخه. وهذه العبارة لا يَعْدلها -كما يقول الرافعي- كلام في معناها، فإن فيها لوناً من التصوير البياني لو أذيبت له اللغة كلها ما وفَّت به.

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي: ٢/ ٣٣٤.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «يا خيل الله اركبي»، وقوله: «لا ينتطح فيها عنزان» أي مسألة لا مرية فيها، وقوله لأنجشة وكان يسير بالنساء في هوادجهن وهو يحدو بالإبل وينشد القريض والرجز فتنشط وتجدُّ وتنبعث في سيرها فتهتز الهوادج وتضطرب النساء فيها اضطراباً شديداً. فقال له عليه الصلاة والسلام: «رويدك، رفقاً بالقوارير».

رابعاً) ما كان يتسم به كلامه ﷺ من المرونة واختلاف التعبير والأسلوب كلما اقتضى الأمر ذلك. وليسَ المقصود اختلافَ الأسلوب والتعبير إيجازاً وتطويلاً، أو شدة وليناً أو نحو ذلك، فهو أمر لا مزية فيه لأحد من الفصحاء على آخر، إذ تعتبر مرونة التعبير بهذا المعنى أدنى قدر مشترك لشرط البلاغة والبيان.

وإنما نعني أنه عليه الصلاة والسلام كان يخاطب كل وفد من وفود العرب بما لديهم من الكلمات واللهجات والتعابير الخاصة بهم، وكان يأتي من ذلك بما لا يحسنه أحد من العرب غيره، إذ كان لسان كل منهم متمكناً من اللغة التي نشأ عليها واللهجة التي استقام لسانه وفقاً لها، أمَّا ما وراء ذلك فلم يكن لأحد منهم في ذلك باعٌ يُذكَر.

فلقد كان عليه الصلاة والسلام يخاطب هذه الوفود المختلفة بما اختصوا به من اللغات والأوضاع الغريبة التي لا تعرفها قريش في لغتها، ولا تهتدي إلى معانيها، ولا يعرفها بعض العرب عن بعض. حتى قال له علي رضي الله عنه وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد: «يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره. فقال عليه الصلاة والسلام: أدبني ربي فأحسن تأديبي».

وكان عليه الصلاة والسلام يبعث إلى هذه الوفود بكتب غريبة

اللغة واللهجة، يخاطبهم فيها بلحونهم، وبألفاظهم المتداوَلَة عندهم والخاصة بهم مما لم يكن ليأتلِفَ مع طبيعة اللغة القرشية، ومما لم يكن للقرشيين ممارسة له أو دراية به.

ولننقل لك واحداً من هذه الكتب لتتصور الأمر على حقيقته، ولتتميَّز اللغة السهلة التي ذهبت خشونتها وانمحى غلظها -وهي لغة قريش- من لغات غريبة أخرى يجيدها النبي ﷺ دون قومه ثم لا تجري على لسانه إلا مع أهلها خاصةً، دون أن تتسلل بأي تأثير أو إضعاف إلى قدرته البيانية ولغته الأصلية.

هذا كتاب من رسول الله ﷺ إلى وائل بن حجر الكندي أحد أقيال حضرموت. وهو كتاب طويل، نجتزئ منه قوله:

«إلى الأقيال العباهلة والأوزاع المشابيب... إن في التيعة شاةً لا مقوَّرة الألياط ولا ضِناك. وانطُوا الثبجة، وفي السُّيوب الخُمس، ومن زنى مم بكر فاصقعوه مئة واستوفضوه عاماً، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم، ولا توصيم في الدين، ولا غُمَّة في فرائض الله تعالى، وكل مسكر حرام. ووائل بن حجر يترفل على الأقيال»(١).

(١) انظر المثل السائر: ٩٧. والتمس شرح الكلمات الغريبة في النهاية لابن الأثير في أماكنها. والأقيال: جمع قيل وهو الملك. والعباهلة المقرُّون على ملكهم. والأوزاع الذين يزدانون بالهيبة والجمال. والمشابيب جمع مشبوب وهو الزاهر اللون. والتيعة أربعون شاة، والمقورة الألياط أي المسترخية الجلود. والضناك السمينة. والمراد بقوله «انطوا الثبجة» أي أعطوا الوسط بين المهازيل والسمان. والسيوب جمع سيب وهو العطية. ومم بكر ومم ثيب أي من بكر ومن ثيب وهي لغتهم. والصقع الضرب. والاستيفاض النفي والتغريب، والأضاميم الحجارة الصغار. والتوصيم الفترة والتواني. ويترفل أي يترأس.

وله من هذا القبيل، بل أغرب، رسائل إلى ذي المشعار الهمداني، وطِهْفَة النهدي، وفَطِن بن حارثة العُليمي، والأشعث بن قيس وغيرهم.

فهذه الظاهرات الأربع جعلت لحديث رسول الله ﷺ موقعه المتميز الرفيع بين النثر العربي، ولقد كان له بسبب ذلك تأثيره العميق في تطور النثر وخلوصه من كدورة البداوة وجلافة الطبع إلى ما انتهى إليه من صفاء الديباجة وحسن السبك.

إلا أنه يجب أن نتنبه إلى أن هذه المزايا في كلامه ﷺ لم تكن ثمرة نشأته القرشية ولا نتيجة استرضاعه في بادية بني سعد، فإن شأن هذين السببين أن يأتيا ببعض هذه المزايا لا كلها، وما شأن رضاعته والبادية التي نشَّأته والقبيلة التي أخرجته، بهذا المراس العجيب لتلك اللغات واللهجات الغريبة الأخرى، دون أن يكون له بها سابقة امتزاج أو تجاور، ودون أن يشترك معه في ذلك أحد من أصحابه وإخوانه العرب من أمثاله؟؟!!.

لا جرم أن من وراء الفطرة وعامل النشأة شيئاً آخر هو الإلهام الإلهي صاغ لسانه هذه الصياغة المرنة المتمرسة حتى يتهيأ له من ذلك إبلاغ رسالته وقصده إلى شتى تلك القبائل واللهجات.

ويطيب لي أن أنقل في هذا الصدد نص كلام ورد لرائد الأدب العربي المرحوم مصطفى صادق الرافعي في كتابه العظيم تاريخ آداب العرب.

يقول: «... ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له ﷺ إلا توفيقاً

من الله، إذ ابتعثه للعرب[١] وهم قوم يقادون من ألسنتهم ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة. ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات، وعلى اختلاف مَواطنهم، كما بسطناه في موضعه من الجزء الأول. فمنهم الفصيح والأفصح، ومنهم الجافي والمضطرب، ومنهم ذو اللوثة والخالصُ في منطقه، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم وتخصص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم لا يساهم فيها غيرهم من العرب إلا من خالطهم أو دنا منهم.

فكان ﷺ يعلم كل ذلك على حقه، كأنما تُكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطاباً وأسدَّهم لفظاً وأبينهم عبارة، ولم يُعرَف ذلك لغيره من العرب، ولو عُرِف لقد كانوا نقلوه وتحدثوا به واستفاض فيهم.

ومثل هذا لا يكون لرجل من العرب إلا عن تعليم أو تلقين أو رواية عن أحياء العرب حياً بعد حي وقبيلاً بعد قبيل، حتى يفلي لغاتهم ويتتبع مناطقهم، مستفرغاً في ذلك متوفراً عليه.

وقد علمنا أنه ﷺ لم يتهيأ له شيء مما وصفنا، ولا تهيأ لأحد من سائر قومه على هذا الوجه، علماً ليس بالظن ويقيناً لا مساغ للشبهة فيه؛ إذ ترادفت به طرق الأخبار المتواترة، وكان مصداقه من أحوال العرب أنفسهم، فما عرف أن أحداً منهم تقصَّص اللغات وحفظ ما

(١) لعل الجملة، كما صاغها الرافعي «إذ ابتعثه في العرب» فإنه رحمه الله يعلم أنه مبعوث للناس جميعاً، للعرب والأعجام.

بينها من فروق الأوضاع واختلاف الصيغ وأنواع الأبنية، واستقصى لذلك يستظهر به عليهم أو ينتحله فيهم. بل كانت هذه الأسباب مقطوعة منهم، لا تجد في الطبيعة ما يمتد بها أو ينميها أو يجعل لها عندهم شأناً أو يبغيها حاجة من الحاجات الباعثة عليها.

فليس إلا أن يكون ما خص به النبي ﷺ من ذلك قد كان توفيقاً وإلهاماً من الله أو ما هذا سبيله مما لا ننفذ في أسبابه ولا نقضي فيه بالظن. فقد علَّمه الله من أشياء كثيرة ما لم يكن يعلم حتى لا يَعْيَا بقوم إن وردوا عليه ولا يَحْصِر إن سألوه، ولا يكونَ في كل قوم إلا منهم، لتكون الحجة أظهر، والبرهان على رسالته أوضح، وليُعلم أن ذلك له خاصة من دون العرب»[1].

جـ- فنون الحديث النبوي:

ثم إن الحديث النبوي ذو فنون وأشكال؛ فمنه الحِكم الجامعة القصيرة وهي التي تسمى جوامع الكلم، ومنه التمثيل والتقريب، ومنه الوصايا والأحكام، ومنه الخطب والكتب.

ويمتاز كل من هذه الفنون بسمات وخصائص معينة، وسنلخص القول في تعريف كل منها واستعراض بعض الأمثلة عليها.

أولاً- الحِكَمُ، أو جوامع الكلم:

وهي تلك المقاطع الصغيرة من الكلام المتسعة لمعانٍ كلية جامعة، تنبسط على جزئيات وأحداث كثيرة، في صياغة متينة من التعبير المشرق الأخاذ. وقد سماها رسول الله ﷺ: جوامع الكلم،

(١) تاريخ آداب العرب: ٢/ ٢٩٨.

وعدَّها في المزايا والمنن التي أكرمه الله بها فقال: «بُعِثت بجوامع الكلم ونُصِرت بالرعب»[١].

فمن هذه الحكم قوله عليه الصلاة والسلام: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[٢]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ولكن فليسعكم منهم بسطة الوجه وحسن الخلق»[٣].

ومنه ما جرى مجرى الأمثال وأصبح من اتساع الدلالة بحيث يمكن أن يتكئ عليه المتكلم في كثير من المعاني المختلفة.

فمنه قوله: «كل الصيد في جوف الفرا»[٤]، والفرا حمار الوحش، والمقصود أن العمل الجليل الذي يفعله الإنسان من شأنه أن يستوعب آثار جميع الأعمال الصغيرة الأخرى، التي قد ينهض بها الآخرون.

ومنه قوله: «إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[٥]، والمنبتُّ هو الذي انقطع به السبيل بالسفر. ومعنى الحديث الشريف: إن الذي اشتد في سرعته للوصول إلى البلدة التي يريدها حتى عطبت دابته أو سبيل ركوبه، لا قطع طريقاً إلى داره ولا أبقى على ظهر

---

(١) رواه الشيخان.
(٢) من حديث حكيم بن حزام، متفق عليه.
(٣) رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة.
(٤) رواه الرامهرمزي بسند جيد ولكنه مرسل، والراجح أن النبي (ص) تمثل به، مثلاً معروفاً عند العرب من قبل.
(٥) رواه البزار من حديث جابر.

يجتاز به البيداء. وإنما قال النبي ﷺ هذا الكلام في معرض النهي عن تحميل الإنسان نفسه ما لا يطيق من الأعمال والطاعات.

ومنه قوله: «لا يُلدَغ المؤمن من جُحر واحد مرتين»[(١)]، والمقصود أن المؤمن هو الذي حنكته التجربة الأولى فما ينبغي له أن يُخدَع مرة ثانية. وقد ذهب الحديث مثلاً يقوله من أراد أن يوقي صاحبه من الخديعة.

ثانياً- الأمثلة المقربة:

وهي تعتمد في أصلها على معانٍ توجيهية هامة، إلا أنها معان مجردة لا يحسُّ المرء بأهميتها، أو لا يتصور صدقها، حتى يلتمس لها صورة مقربة في الذهن. فيعرض لها النبي عيه الصلاة والسلام صوراً مماثلة تقربها إلى الذهن والخيال، حتى يشتد سلطانها على الوجدان فينهض صاحبه إلى العمل وفقها.

وتعتبر القدرة على هذا التمثيل من أخص وظائف المعلم والمربي، وهي تهدف إلى مزج العقل بالوجدان واستخراج دوافع إيجابية متكافئة منهما.

وقد أوتي رسول الله ﷺ، وهو الذي بُعِث معلماً ومربياً، قدرة فائقة على تطويع المعاني المجردة للتمثيل والتقريب.

من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه البخاري: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا!... فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً». وهو تمثيل رائع - كما ترى - للحرية المطلقة التي لا يضبطها نظام ولا يسهر على النظام مسؤول، وتصوير لنتائجها السيئة على المجتمع كله.

ومن ذلك أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه مسلم وغيره: «مثل البخيل والمتصدق مثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد، إذا همَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه حتى تُعفِّي أثره، وإذا همَّ البخيل بصدقة تقلصت عليه وانضمت يداه إلى تراقيه، وانقبضت كل حلقة إلى صاحبتها، فيجهد أن يوسعها فلا يستطيع»، وهذا تمثيل رائع يجسد فيه رسول الله ﷺ الحالة النفسية لكل من البخيل والكريم عندما يريد أن يتصدق بشيء من ماله على محتاج أو في سبيل من سبل الخير، وهو من التمثيل الغريب الذي لم تألفه الأذن ولا يتخيله الوهم.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

ثالثاً- الوصايا والأحكام:

وهي فصول قصيرة من الكلام البليغ، يغلب أن تأتي في ثنايا الحوار، أو جواباً عن سؤال. وتدخل في هذا القسم الأحاديث الكثيرة التي تتضمن بيان الأحكام وتفصيلات ما أجمله القرآن من المسائل الشرعية المختلفة.

من هذا النوع ما رواه الترمذي والإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رُفِعت الأقلام وجفت الصحف».

ومنه ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا[١] ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره. التقوى ههنا، وأشار إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه».

ومنه ما رواه البيهقي في شعب الإيمان، والديلمي في مسند الفردوس، وابن سعد في طبقاته، من حديث أبي البجير بسند حسن أنه ﷺ قال:

«ألا يا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رُبَّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رُبَّ مهين لنفسه وهو لها مكرم، ألا يا رُبَّ متخوِّض متنعم فيما أفاء الله على

(١) النجش: أن يزيد الرجل في السلعة المعروضة للبيع دون رغبة في شرائها بل لمجرد المضارَّة.

رسوله، ما له عند الله من خَلاق. ألا وإنّ عمل الجنة حَزْن بربوة، ألا وإن عمل النار سهل بسهوة، ألا يا رُبَّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً»[١].

ومنه ما رواه الدارقطني والرامهرمزي من حديث أبي سعيد الخدري أنه ﷺ قال: «إياكم وخضراء الدِّمَن» فقيل: ما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء في المنبت السوء»[٢].

ومن ذلك قوله ﷺ فيما رواه الترمذي وأبو نعيم في الحلية من حديث عائشة: «من استرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس».

إن خلاصة القول (وهي ما قد يتسع له المجال هنا) فيما تتميز به البلاغة النبوية في هذه النصوص وأمثالها، أنها جمل راسخة السبك، دقيقة التعبير عن عمق المعاني التي تنطوي عليها، بالغة الروعة في استثارة مشاعر النفس، لا ترى فيها فضولاً من الكلام التزييني، ولا تقع فيها على معنى تعوزه الدلالة والأداة، كلا الألفاظ والمعاني كِفاءٌ للآخر متساوق معه. وإن من الحق أن يقال عنه إنه من السهل الممتنع.

وفرق ما بين هذه النصوص النبوية والنثر العربي المعروف والمألوف آنذاك، أن هذا الثاني يظل مغموساً في التكلفات السجعية

(١) الحَزْن: الطريق ذو الشدة والعقبات. والربوة: المكان المرتفع. والسهل: الأرض المستوية. والسهوة: الأرض ذات التربة اللينة.

(٢) الدمن: جمع دمنة، وهي ملتقى نفايات الدواب وأقذار الأرض، وإذا تطاول أمد هذا الركام وهطلت خلال ذلك عليه الأمطار، اخضرَّ وجه تلك الدمنة بنباتات زاهية اللون، ولكن طعمها لا يخلو من آفات وسموم. فانظر إلى جمال التشبيه ودقته.

والألفاظ التزيينية والتضاريس الكلامية النابية عن الذوق، إلى درجة أن من يقرأ أو يسمع شيئاً منه يكاد يذهل عن المعنى المراد إبلاغه، منشغلاً عنه بالصنعة الكلامية التي تعرّف بنفسها وتجذب السامع أو القارئ إليها.

وحصيلة القول أن البلاغة النبوية سمت بالبيان العربي المنثور إلى أن تكون البلاغة الكلامية خادمة للمعاني، بدلاً مما كان عليه الحال غالباً من جعل المعاني أسيرة لجمال السبك والألفاظ. ويُعدُّ هذا من أهم فروق ما بين الأدب الجاهلي والأدب الإسلامي.

رابعاً- الخطب والكتب:

أما الخطب فهي فصول طويلة أو وجيزة من الكلام، ألقاها النبي ﷺ في مواقف مختلفة أمام الحشود، ذات مواضيع وأبحاث متنوعة حسب المقام الذي اقتضاها ووفقاً للمناسبات التي أُلقيت فيها.

وأما الكتب، فهي رسائله ﷺ التي أملاها على كُتَّابه وأرسلها إلى ملوك وعظماء العالم إذ ذاك، وهي -إلى جانب ما ذكرته لك من خلاصة المزية الكبرى التي تختلف بها البلاغة النبوية عن النثر العربي عموماً والجاهلي خصوصاً- تتسم بطابع الدعوة إلى الإيمان بالله واتباع الحق الذي أوحى الله به إليه والتحقق بوصف العبودية لله سبحانه وتعالى.

وسنعرض لك نموذجاً من خطبه وكتبه.

أ- من خطبة له ﷺ:

«أيها الناس: إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية

فانتهوا إلى نهايتكم. إن المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى، لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي، لا يدري ما الله تعالى قاضٍ عليه فيه. فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذي نفس محمد بيده: ما بعد الموت من مُستَعْتَب، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار...»(١).

ب- وهذا نص كتابه الذي أرسله إلى هرقل ملك الروم:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين(٢). ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»(٣).

خامساً- أدعيته وابتهالاته:

وإنها لأبرز ما يمكن أن يعبر عنه بجوامع الكلم. وإنك لتجدها جملاً قصيرة تفيض بمعانٍ غزيرة، لا تتبين فيها شيئاً من آثار الصنعة أو التكلف.

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف.
(٢) الأريسيون: هم عامة الناس ودهماؤهم. والصحيح أنهم نسبة إلى أريوس، رجل دين رفض التغيير الذي أُدخِل على الإنجيل، وكان من الموحدين المؤمنين بنبوة عيسى عبداً لله.
(٣) متفق عليه.

فمن دعائه قوله فيما يرويه مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

ومن ذلك قوله فيما رواه مسلم من حديث أبي هريرة: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر».

ومن ذلك هذا الذي كان يدعو به قبل نومه، وهو متفق عليه من حديث البراء: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، اللهم إن أمسكت روحي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

فهذه نماذج من فنون الكلام النبوي، تجد فيها الجامع المشترك المتمثل في السمة البشرية التي تتجلى، بل تفرض نفسها في كلامه، ثم تجد فيها جامعاً مشتركاً آخر، يتمثل في السبك البليغ المرسل عن التكلفات التزيينية والتقعرات اللفظية التي تراها في سائر كلام العرب المنثور في عصره. وتجد فيها جامعاً مشتركاً ثالثاً، هو الجمل المختصرة الجامعة، التي يفيض كل منها بذخر من المعاني والمشاعر والأفكار. وصدق رسول الله إذ قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[١].

(١) رواه ابن السمعاني من حديث ابن مسعود، بسند صحيح.

دراسة وتحليل

لنصوص من كلامه عليه الصلاة والسلام

عرضنا فيما مضى لأقسام الحديث النبوي، ومثلنا لكل قسم منه ببعض النماذج، ولنختم هذه الصفحات اليسيرة عن البلاغة النبوية بنصوص من كلامه ﷺ مع دراسة وتحليل لقيمتها الفكرية والبلاغية.

وقد اخترنا من هديه ﷺ خطبتين ألقى إحداهما في أعقاب غزوة حنين، وألقى الثانية في حجة الوداع. وكان لكل منهما الأثر البالغ في النفوس، وهما من عيون كلامه ﷺ (وكل كلامه عيون) سمواً وروعة في الأسلوب، وإنسانية وهدياً في المضمون.

ونبدأ بدراسة الخطبة الأولى، ولكنا نرى أن نصور للقارئ الجو الذي ألقيت فيه والعوامل التي حشدت لدى النبي ﷺ مشاعرها وأفكارها وأججت في نفسه عواطفها ومؤثراتها. وإليك خلاصة ذلك:

غزوة حنين أول غزوة بعد فتح مكة ودخول معظم أهلها في الإسلام. وقد اشتركوا مع النبي ﷺ فيها ولمَّا يمض على إسلامهم بضعة أسابيع.

وكان معه ﷺ فيها إخوانه من الأنصار، أهل المدينة، والمهاجرون مسلمو مكة القدامى.

وانتصر المسلمون في هذه الغزوة أخيراً، وغنموا قدراً كبيراً من الأموال والغنائم. ولما أخذ النبي ﷺ يوزع هذه الأموال، جعل يضاعف نصيب من معه ممن أسلموا حديثاً من أهل مكة، تألفاً لقلوبهم ودعماً لآصرتهم. وهو من المبادئ التي نصَّ عليها القرآن في سياسة الإنفاق التي يجب أن يتبعها المسلمون.

ورأى الأنصار ذلك، فقال بعض منهم فيما بينهم:

يغفر الله لرسول الله... يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأرسل إلى الأنصار فاجتمعوا في مكان خاص أُعِدَّ لهم، ثم قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

«يا معشر الأنصار.. ما قالة بلغتني عنكم؟!.. ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله بي، ومتفرقين فألَّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟!.. (كلما قال لهم من ذلك شيئاً قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل) ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟.. قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل. فقال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك (فصاحوا: بل المنُّ علينا لله ورسوله).

فتابع الرسول كلامه قائلاً: أَوَجَدْتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من أجل لَعَاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم!.. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة

والبعير وترجعوا إلى رحالكم برسول الله؟.. فوالله لَمَا تنقلبون به خير مما ينقلبون به. والذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً آخر لسلكت شعب الأنصار، الأنصار شعاري والناس دثاري. وإنكم ستلقون أثرة من بعدي، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»(١).

هذه الكلمات الوجيزة التي ألقاها النبي عليه الصلاة والسلام في الأنصار، تشفُّ عن رقة بالغة وذوق رفيع امتازت بهما فطرته عليه الصلاة والسلام. وإذا تأملت فيها وجدت أنها قد تضمنت أدق خفقات قلبه وألطف إحساساته.

وهذه الخصيصة التي في خطابه هذا تجعله لوناً فريداً من الخطب التي تعتمد عادة على الإثارة والتهييج أو المحاكمة الفكرية والخطابية، فأنت لا تجد في خطابه هذا شيئاً من المثيرات أو أسباب الحماسة، ولا شيئاً من المحاكمة الخطابية حول شيء من قضايا الفكر أو العلم أو القيم، وإنما هو دفع عاطفي أصيل ينبعث من شغاف نفس رقيقة وشعور مرهف متَّقد.

ولقد لامست هذه الرقة والخفقات القلبية الصادقة في كلماته عليه الصلاة والسلام مشاعر الأنصار فهزتها هزَّاً، ونفضت منها ما قد علق بها من الوساوس والهواجس التي أشرنا إليها وإلى أسبابها. فارتفعت أصواتهم بالبكاء وهم ينادون: رضينا بالله ورسوله قَسماً ونصيباً.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن إسحاق وابن سعد وغيرهم بنصوص متقاربة في الزيادة والنقصان.

وانظر إلى سَيْر هذا الدفع العاطفي في خطابه عليه الصلاة والسلام؛ إنه يذكِّرهم أولاً بمظاهر الفضل الإلهي التي أكرمهم الله بها بعد اجتماعهم على هدْيه وإيمانهم بنبوته. فقد كانوا تائهين فأبدل الله ضلالهم رشداً، وكانوا متفرقين متناحرين فأبدلهم الله عن ذلك تضامناً وتآلفاً... حتى إذا تذكروا ذلك واستشعروا ما له عليه الصلاة والسلام من يد عندهم في ذلك وأيقنوا بالمنة واعترفوا بها.. لم يقنعه ﷺ جواب الاعتراف، بل راح ينبههم إلى الجواب الذي يجعلهم يقابلون فضلاً بفضل ومنة بأخرى، وإذن فالحساب مغلق بينه وبينهم وليس لأحد الجانبين فضل منة على الآخر.

وتأبى شهامة الأنصار ونبلهم أن يتنبهوا إلى هذا الجواب، فيظلون عند قولهم: لله ولرسوله المنة والفضل، يكررونه ويعيدونه. ولكنه - عليه الصلاة والسلام - يأبى إلا أن يلقنهم الجواب الذي يريد.. الجواب الذي تستشعره الإنسانية السامية في كيانه وينوء تحت ثقله وجدانه الرقيق وخلقه القويم. فيقول لهم:

«ألا تجيبونني يا معشر الأنصار!.... أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك».

إنه ينبههم إلى الجواب، ويشجعهم على أن يواجهوه به، ويقابلوا المنة بمثلها، بل هو يطمئنهم إلى أنه جواب صدقٍ لو قالوه، وأن أحداً لا يستطيع أن يجادلهم فيه أو يكذبهم به!.. وإنك لتلحظ في ذلك، الوفاءَ الرائع الذي يتسامى في شعوره عليه الصلاة والسلام حتى على مقام النبوة وعلى المكانة السامية التي يتبوؤها عند الله وبين الناس.

وانظر إلى وسيلة التعبير عن هذا الوفاء السامي، لقد جاء أبلغ ما يكون في الحرارة والبيان، فهو أبلغ بكثير مما لو نطق هو بالجواب عنهم بصيغة الاعتراف والإقرار، كأن يقول مثلاً: ولكني كنت أنا أيضاً مخذولاً فنصرتموني، وطريداً فآويتموني، وعائلاً فواسيتموني.

إن في هذا التعبير بهذا الأسلوب إقراراً بالفضل ولا ريب، ولكنه إقرار ينبع بهذا الشكل من خلق التواضع الذي يخجل الطرف الآخر أكثر مما يبصِّره بحقه ويشجعه على تحصيله.

وهو - عليه الصلاة والسلام - إنما يريد أن يحيل هذا الإقرار الذي يخضع له شعوره الداخلي إلى حق ينبغي أن يناله صاحبه.

ورب كلمات من ألفاظ التواضع والخضوع يلتذ المتواضع بقولها والتحلي بها؛ لأنها تزيده في أعين الناس رفعة، ولكنه يتأذى من أن يواجهه بها الآخرون لأنها تَصِمُه -فيما يبدو له- بالنقيصة والهوان.

ومن منطلق هذا الشعور الوفي النبيل، الذي ترجَمَتْه هذه العبارات الحارة الصادقة، يتجه عليه الصلاة والسلام إلى الأنصار بعتاب رقيق ينبعث من أعماق نفس متأثرة:

«أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من أجل لَعَاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم!..»

والجِدَة -كما تعلم- الانكماش النفسي عن الشيء. واللعاعة نبت أخضر صغير لا بقاء له، يشبِّه به النبي عليه الصلاة والسلام الدنيا بزخرفها وخيراتها .

أفيكون قدْرٌ من المال حقير -مهما بلغ من الكثرة- سبباً لحفيظة

تتسلل إلى أفئدة الأنصار تجاه النبي عليه الصلاة والسلام، وإن بينه وبينهم من وشيجة الدين ما لا ينبغي أن تقطعه الدنيا كلها، وإن بينه وبينهم من التشبع بمعرفة الحق ما لا يحتاجون معه إلى مال يتألفهم أو سياسة تربطهم؟!

ويلفت - عليه الصلاة والسلام - نظرهم إلى ما كان ينبغي عليهم أن لا يجهلوه من مدى محبته ﷺ ووفائه لهم؛ فإن قريشاً لن تعود - مهما تعاظم لهم الغنم والوفر - إلى مكة، إلا بقطعان الشياه والجمال. ولكن الأنصار يعودون إلى المدينة بمحمد عليه الصلاة والسلام، ليكون محياه معهم ومماته فيما بينهم. ومهما خضعت مكة للإسلام، ومهما تفتحت أبوابها -وهي وطنه الأم- فإنه لن يتحول عن الأنصار الذين آووه في بلدتهم، ونصروه بدمائهم، وصدقوه يوم كذبه الناس، وأحبوه يوم شنأه قومه وأهله.

وتأمل في التعبير البليغ عن المقارنة بين كسب قريش بالمال وفوز الأنصار برسول الله: «فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به»!.. ثم انظر كيف يعدُّ نفسه ﷺ واحداً من الأنصار، لولا فارق واحد هو أنه جاء إليهم مهاجراً، فلئن كانت الهجرة من شأنها أن تفرق بينه وبينهم، فإن استيطانه عندهم وركونه إليهم وتهيؤه للموت بينهم من شأنه أن يزيل هذا الفارق الوهمي.

وتعتلج عوامل الحب للأنصار في قلبه عليه الصلاة والسلام، ممزوجة بحرارة، بل بحرقة، التأثر من وهمهم والعتاب عليهم، فيكشف لهم عن ذات نفسه وعما يكنه قلبه من الحب الشديد لهم قائلاً:

«لو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً آخر، لسلكت شعب الأنصار... الأنصار شعاري والناس دثاري..».

والشِّعب هو الطريق بين الجبلين، وإنما يصور - عليه الصلاة والسلام - بذلك أنه قد ربط مصيره مع الأنصار، وأنه لن يحيد عنهم مهما تفرق عنهم الناس. ويشبه الأنصار بالثوب اللاصق بجسمه؛ وهو الشعار، من حيث يشبه الآخرين بالرداء المسدل من فوقه؛ وهو الدثار، يصور بذلك شدة ارتباطه بهم وامتزاجه معهم.

ثم يختم - عليه الصلاة والسلام - كلماته العاطفية هذه بوصية وجيزة جامعة استلهمها من وحي الحالة وسبب العتاب: «وإنكم ستلقون أثرة من بعدي فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»، سوف تفتح عليكم الدنيا ويكثر المال ويشيع التنافس عليه، وتولد الأثرة في النفوس، فاصبروا أنتم عن اقتحام هذه المخاضة. والموعد بيني وبينكم هو الحوض يوم القيامة.

وقد كان أمراً لا بدَّ منه أن ينجرف الأنصار في شعور عاطفي لاهب عبرت عنه العيون الباكية والأصوات المتعالية تبايعه ﷺ من جديد.

وقد كان الذي يؤيده ﷺ من وراء كلماته تلك، ويبث فيها مزيداً من حرقة الصدق، حاله البادية لهم؛ فقد عامل نفسه معاملة أقسى مما عامل به الأنصار، وانسل من تلك الغزوة وقد نفض كفيه حتى عن حقه الشخصي الذي أمكنه الله منه وهو الخمس. وقسم المال كله بين أصحابه على النحو الذي اقتضته سياسة التأليف وهو يقول: أيها الناس ليس لي مما أفاءه الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم.

الخطبة الثانية - خطبة الوداع

في العام العاشر من هجرته ﷺ إلى المدينة، وقبل وفاته بثلاثة أشهر، أذَّن في الناس أنه سيخرج حاجاً إلى بيت الله الحرام. وكان قد مكث قبلها في المدينة تسع سنين لم يحج.

فقدم المدينة بَشَرٌ كثير كلهم يلتمس أن يأتمَّ برسول الله في حجه. وخرج - عليه الصلاة والسلام - من المدينة لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة، فما استوت به ناقته في البيداء حتى امتلأت من حوله بالناس مشاةً وركباناً.

ومضى رسول الله في حجه، فبيَّن للناس سنن حجهم وعلَّمهم مناسكهم.

وألقى في يوم عرفة خطبة جامعة في جموع المسلمين الذين احتشدوا من حوله في الموقف، هذا نصها:

«يا أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة. وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يُعبَد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضي به؛ مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلُّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرَّم الله فيحلوا ما حرَّم الله ويحرموا ما أحلَّ الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

اتقوا الله في النساء فإنكم إنما أخذتموهنَّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله. وإن لكم عليهنَّ حقاً، ولهنَّ عليكم حقاً: لكم عليهنَّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فعظوهنَّ واهجروهنَّ في المضاجع واضربوهنَّ ضرباً غير مبرح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف. فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلَّغت. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله وسنة رسوله.

يا أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمِّرَ عليكم عبد حبشي مجدَّع ما أقام فيكم كتاب الله تعالى.

أرقاءَكم أرقاءَكم ..أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، وإن جاؤوا بذنب لا تريدون أن تغفروه، فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم.

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه: تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمُنَّ أنفسكم. اللهم هل بلَّغت؟... وستلقون ربكم فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.

ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه. وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟... قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت!...

فأشار بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد»(١).

أول ما يتجلَّى للمتأمل في هذه الخطبة الجامعة لرسول الله ﷺ، أنها لسان مودع يحزم أمره على الرحيل، ويُنهي إلى قومه وصحبه أهمَّ وصاياه وخلاصة تعاليمه.

فأنت تبصر كيف أنه يثير اهتمام الناس من حوله إلى أن هذه الوقفة ربما كانت آخر لقاء مشهود معهم في موقف جامع. بل إنك لتلاحظ من نسق الخطاب وأسلوبه وكلماته أنه - عليه الصلاة والسلام - إنما أخذ ينظر من خلال وجوه ذلك الحشد إلى الأجيال المقبلة من ورائه.. إلى العالم الإسلامي الكبير الذي سيفيض به شرق هذه الأرض وغربها، وأنه راح يلقي خطابه المودع على مسامع هذا العالم كله!..

وأنصتت الدنيا لتسمع قوله، وأنصت الحجر والقفر والمدر إلى الكلمة المودعة يلقيها النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن استأنست به الدنيا كلها ثلاثة وستين عاماً!.. إنه اليوم يلمح بالرحيل، ويقف ليلخص المبادئ التي جاء بها وجاهد في سبيلها في كلمات جامعة وبنود معدودة.

---

(١) نقلنا نص هذه الخطبة من صحيح مسلم والبخاري، وأضفنا إليها زيادات بسيطة وردت في ابن إسحاق وطبقات ابن سعد وغيرهما.

وإنك لتلاحظ أنه لا ينطوي على معالجة موضوع خاص بعينه أوحى به الظرف والحال، وإنما يضم شوارد الأحكام والمبادئ الكبرى التي كان قد أرساها وأمر بها في مناسبات متفرقة مضت، ليجعل منها وصيته الأخيرة إليهم، فلا ينحرفوا عنها ما امتدت بهم أو بأجيالهم حياة فوق الأرض.

فإذا تأملت، بعد ذلك، في صياغة الخطاب وروحه البيانية، لاحظت أنه كلام مرسل مطبوع بعيد عن أي تكلف أو صنعة مما قد ألف العرب اقتحامه، ولكنه مع ذلك حديث يسطع بمثل نور النجم في جوف الظلام، ذو أسلوب راسخ متماسك، تذوق فيه حلاوة الصدق، وتخلبك منه بلاغة القول، يتسم بالقوة من دون اعتساف، ويتصف باللين من دون ضعف.

انظر إلى قراره الصارم إذ يقول: «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع»!..

ثم انظر إلى استعطافه الرقيق إذ يقول: «أرقاءَكم أرقاءَكم .. أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، وإن جاؤوا بذنب لا تريدون أن تغفروه، فبيعوا، عباد الله، ولا تعذبوهم»!..

وذلك هو شأن الخطيب؛ لا تنسيه الشدة موضع اللين وحكمه، ولا يقصيه اللين عن الشدة حيثما احتاج الأمر إليها.

فإذا أخذت تتأمل بعد ذلك في المبادئ التي تضمنها خطابه، رأيت أنه قد شمل جميع ما كان قد فصَّله للناس من المبادئ الإنسانية العامة، وتناوله في عبارات موجزة جامعة.

ولقد قضت إلهامات النبوة أن يكون أول مبدأ يخاطب به الأجيال

منها، حرمةَ الدماء والأموال؛ فكل منهما حق مقدس لا يجوز انتهاكه أو امتهانه، كقداسة يوم عرفة في أرض عرفة في شهر ذي الحجة الحرام. وهكذا فإنك ترى في ربطه - عليه الصلاة والسلام - لقداسة الدماء والأموال بقداسة الزمان الذي هو فيه والمكان الذي يجتمع مع المسلمين فيه، أبلغ وسيلة وجدانية لهز المشاعر وربطها بهذا الحق من خلال تقديرها لذلك اليوم الأقدس؛ يوم عرفة المبارك.

فإذا خَضَعَت ألبابُ المستمعين لهذا المبدأ الذي هو جوهر المبادئ الإنسانية كلها، اتجه إلى مبدأ آخر سلبي من شأنه أن يحمي سلامة المبدأ الأول الذي افتتح خطابه به؛ إنه الترفع عن تقاليد الجاهلية وأعرافها وعصبيتها.. تلك التقاليد التي طالما مزقت قدسية الحياة الإنسانية واستعبدت الإنسان لأخيه الإنسان بأغلال الظلم والمراباة.

أرجاس من تقاليد الجاهلية، وفوارق العصبية والأنساب واللغة والعرق، أبعدها الرسول عليه الصلاة والسلام، بأبلغ تعبير صارم، عن الرسالة الإنسانية وتقدمها الفكري والحضاري، وأعلن أنها قد عادت حثالة مدفونة تحت قدميه، كي يثبت للدنيا كلها ويسجل على سمع القرون والأجيال، أنه ما من تائه يزعم التقدم الفكري إذ يعمد فينبش شيئاً من هذا الدفين الجاهلي القديم، إلا وهو يرجع القهقرى، يَسْبَح في أغوار قصيَّة من التاريخ المظلم القديم، وإن خُيِّلَ إليه أنه إنما يخطو مترقياً ويتقدم صعداً في مدارج الحضارة.

ويحذِّر - عليه الصلاة والسلام - المستمعين من أن الشيطان قد يئس من أن تعود الجزيرة العربية إلى كفرها ووثنيتها السابقين، ولكنه

سوف يطرح في طريقهم ما هو دون ذلك مما قد يحتقرونه من الموبقات وأسباب الفرقة والفتنة والشقاق، ولسوف ينال منهم غاية عظمى إن هم لم يحذروا على أنفسهم منه.

ثم إنه - عليه الصلاة والسلام - يعلن عن تطابق الزمن إذ ذاك مع أسماء الأشهر المقسمة عليه، وذلك بعد طول تلاعب بها من العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، فقد كانوا -كما قال المؤرخون وعلماء السيرة- يجعلون حجهم كل عامين في شهر معين من السنة، فيحجون في ذي الحجة عامين ثم يحجون في المحرم عامين وهكذا.. وقد كانوا أيضاً يتلاعبون بأسماء الشهور طبقاً لرغباتهم في السلم والقتال(١). فلما حجَّ رسول الله ذلك العام وافق حجه شهر ذي الحجة في الوقت المحدد له، فأعلن - عليه الصلاة والسلام - أن الزمان قد استدار كهيئته في الأصل، أي فلا تتلاعبوا بالأشهر بعد اليوم تقديماً وتأخيراً، ولا حج بعد اليوم إلا في هذا الزمن الذي استقر اسمه: ذا الحجة.

ويخص النبي عليه الصلاة والسلام النساء ببند مستقل من خطابه، ويوصي الناس بهنَّ خيراً، ويؤكد في كلمة وجيزة جامعة، المعالم البارزة لضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها الأحكام المفصلة بشأنها في الشريعة الإسلامية.

ثم إنه ﷺ يضع الناس من جميع المشكلات التي قد تعترض حياتهم أمام مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم في الاعتصام بهما الأمان من كل شقاء وضلال، وهما كتاب الله وسنة رسوله.

---

(١) وهو الذي عبَّر عنه القرآن بالنسيء وذلك في قوله عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة: ٩/ ٣٧].

وإنك لتجده يتقدم بهذا الضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده، بعبارة يتجه فيها الخطاب إلى تلك الأجيال الآتية مع الزمن، ليبين لهم أن صلاحية التمسك بهذين المصدرين ليست وقفاً على عصر دون آخر، وأنه لا ينبغي لأي تطور حضاري أو عرف زمني أن يكون له سلطان عليهما.

ويناسب عند ذكره الدستور الذي يجب اتباعه، أن يتحدث عن علاقة الحاكم بالرعية والشعب.. ويتحدث ﷺ عن هذه العلاقة بأبلغ كلمة وجيزة جامعة:

«اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمِّرَ عليكم عبد حبشي مجدَّع ما أقام فيكم كتاب الله».

أي إن الحاكم إنما يمثل السلطة التنفيذية للمشرع الذي هو الله جلَّ جلاله، فمهما كان يمثلها بصدق وجب الخضوع له والانقياد لحكمه الذي هو حكم الله. وليكن إن شاء عبداً مجدع الأنف؛ أي حقير المنظر والمظهر.

وانطلاقاً من هذه الكلمة الجامعة، لم تتعرف الشريعة الإسلامية على ما يسمى بالحصانة أو الامتيازات لطبقة ما بين المسلمين في شيء من قضايا الحكم أو القانون أو القضاء.

ويلفت - عليه الصلاة والسلام - نظر المسلمين إلى ما يجب أن تتسم به معاملتهم للأرقاء الذين بين أيديهم، ويوصيهم بأن يعاملوهم بمودة وإكرام، وأن لا يجعلوا منهم طبقة أدنى في الحقوق والمعاملات من سائر الناس. فإذا ضاقوا بهم ذرعاً بسبب أخطاء

ارتكبوها فليبيعوهم ولا يعذبوهم، فإن في ذلك حفظاً لكرامة الأرقاء وتحقيقاً لمصلحة الآخرين.

وتأمل في الأسلوب الرقيق الذي صاغ به النبي عليه الصلاة والسلام هذه الوصية، وانظر إلى الأمر الذي كنَّى به عن ضرورة المساواة في المعاملة بين الأرقاء والمتسودين عليهم: «أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون»، وهو أبرز ما تتجسد فيه حقيقة المساواة. ثم أمعن النظر في الكلمة المثيرة التي أراد أن يذكرهم من خلالها: بأن الأرقاء عبيد لله وليسوا عبيداً لهم، وذلك عندما قال: «.. فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم»، فسواء اعتبرت «عباد الله» مفعولاً لبيعوا أو منادى بتقدير: يا عباد الله، فإن الكلمة تذكير لطيف بأن كلاً من الأرقاء والسادة عبيد لله عزَّ وجلَّ..

ولأمر ما يختم رسول الله خطابه بتكرير البند الذي افتتحه به؛ وهو قدسية الحياة وحرمة المال: «إن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمُنَّ أنفسكم، اللهم هل بلَّغت؟... وستلقون ربكم فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

* * *

وفي الختام . . . يشعر رسول الله ﷺ أنه أخرج مسؤولية الدعوة وواجب تبليغها عن عنقه، فها هو الإسلام قد انتشر، وها هي ضلالات الجاهلية قد تبددت، وها هي أحكام الشريعة الإسلامية قد بُلِّغت.

ولكنه يريد أن يطمئن إلى شهادة أمته بذلك أمام الله تعالى يوم القيامة عندما يُسألون.. فأعقب توصياته هذه لهم بأن نادى فيهم:

«إنكم ستُسألون عني، فما أنتم قائلون؟»

وارتفعت الأصوات من حوله تصيح: نشهد أنك قد بلغت، وأديت ونصحت!..

وحينئذ اطمأن الرسول العظيم.

لقد كان يريد أن يستوثق من هذه الشهادة التي سيلقى بها وجه ربه عزَّ وجلَّ. ولقد اطمأن الحبيب الأعظم إذ ذاك، وشعَّ الرضى في عينيه، ونظر بهما إلى الأعلى يشير بأصبعه إلى السماء ثم ينكتها إلى الناس يقول:

اللهم اشهد.. اللهم اشهد.. اللهم اشهد.

ويا ما أعظمها من سعادة!.. سعادة رسول الله عليه الصلاة والسلام بشبابه الذي أبلاه، وعمره الذي أمضاه، في سبيل الدعوة إلى شريعة ربه، وذلك عندما ينظر فيرى حصيلة الجهد الذي قدم والعمر الذي بذل، أصواتاً ترتفع بتوحيد الله، وجباهاً تعنو ساجدة لدين الله، وقلوباً خفاقة تجيش بحب الله، وشهادة تعلو بذلك إلى سماء الله!..

ألا ما أسعد حبيب الله بذكرى ما لقيه من ظمأ الهواجر، وشتات السفر في القفار، وعذاب السخرية والإيذاء في سبيل هذا الإيمان الذي شاده فوق أرض الله!.. فلتكتحل به عيناك يا سيدي سعادة وسروراً، وليبارك لك ربك في وجيب قلبك نشوة وحبوراً.

ولا والله، لم تكن تلك الأصوات الهادرة من حوله شهادة تلك الآلاف المحتشدة فحسب؛ وإنما هي شهادة المسلمين كلهم في كل جيل وعصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تعلن بلسان حالها ومقالها: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فجزاك الله عنا خير ما جوزي نبي عن أمته.



وبعد...

وبعد، فإن هذه الصفحات اليسيرة، لا تبلغ أن تكون كِفاءً للتعريف بحديث رسول الله وشرح البلاغة النبوية وتحليلها والوفاء بجوانبها، وما هي منها إلا وَشَلٌ من بحر.

ولكني كنت قد كتبتها على عجل في ضيق من الوقت وخلال زحمة العمل، كي ألبِّي بها حاجة الطلاب في دراسة هذا المقرر. ثم إني تركت هذا الذي كتبته بين طيات دفاتري وأوراقي الكثيرة، ثم مضت على ذلك سنوات.. ثم غشَّاها النسيان!..

ثم إن سانحة مرَّت بي أعادتني إلى القديم المطوي من دفاتري وأوراقي، وما هي إلا أن أعادتني إلى الليالي الخوالي التي كتبت فيها هذه الصفحات، وشدتني إلى عبق المجالس والأسمار التي ذكرت طرفاً منها في مقدمة هذا الكتاب.

* * *

ولقد قلت في صدر هذه الفصول أن جلَّ الطلاب الذين ألقيت فيهم محاضرات عن البلاغة القرآنية والنبوية، كانوا غرباء عن القرآن، بعيدين حتى عن تلاوته، فضلاً عن إدراك أي من مزاياه. وكان جلّهم ممن تجاوزت أعمارهم مرحلة الدراسة الجامعية، إذ رحبت بهم الجامعة مع نشأتها تجاوزاً، ولكنهم سرعان ما تفاعلوا مع ما كان يستبين لهم من مظاهر بلاغته وإعجازه، ولعل ذلك إنما

كان بفضل الملكة الأدبية التي تمتعوا بها في نهاية السنة الأولى من دراستهم الجامعية؛ إذ كانوا يتلقون مقرر البلاغة القرآنية والنبوية في السنة الثانية.

ولقد رغبت في نهاية العام الدراسي الأول، من سنوات تدريسي في كلية الآداب باللاذقية، أن أتبين الحصيلة التي أدركتْها أفكارهم وتذوقتها نفوسهم من ظاهرة البلاغة القرآنية التي سمت حقاً إلى درجة الإعجاز. فأثبتُّ أمامهم على اللوح نصاً صُغته من كلامي، وأودعت بين جمله ألفاظاً من القرآن يدرك هويتها القرآنية كل من أتيح له أن ينال حظاً من دراسة السبك القرآني مقارناً بينه وبين عموم ما كان معروفاً من كلام العرب آنذاك.

لقد كان مما سرَّني وأسعدني أن المحاضرات التي أُلقيت خلال العام قد آتت بحمد الله ثمارها، وأن غربة الطلاب عن القرآن في صدر ذلك العام انقشعت عنهم في آخر العام، وحلَّ في محلها الأنس به والتذوق لبلاغته؛ فلقد التقط الطلاب الكلمات القرآنية المبثوثة داخل النص، كما تُلْتَقَط آحاد الدُّرِّ من داخل التراب.

وإليك النص دون أن أبرز لك الكلمات القرآنية فيه، كي تستبين نسبتك العلمية إلى أولئك الطلاب؛ سمواً عليهم أو دُنواً عنهم. فإن أعجزك الأمر والتبست عليك الكلمات،

فاقلب الصفحة تجدْ قائمة الكلمات القرآنية أمامك، بعد أن تعكس أعلى الصفحة إلى الأدنى منها.



(أبحرنا من شاطئ مرسيليا متجهين إلى الإسكندرية. كان الفُلْكُ يضم أمشاجاً من الناس من مختلفي المذاهب والأجناس. وفجأة، وبعد أن مضت ناشئة من الليل، هبَّت ريح عاصفة جعلت السفينة تميد تحتنا بشكل مرعب. وغشيتنا أمواج كالظلل من شتى جهات البحر. دَاخَلَ الراكبين رعبٌ شديد من ذلك، حتى استيأسوا من النجاة، وظنوا أنهم قد أحيط بهم. فاجتمعوا عليَّ يطلبون الدعاء والتضرع إلى الله أن ينجي فُلكنا، فأقبلنا نتضرع إلى الله وندعوه. كان الجميع متبتلين ناكسي رؤوسهم من الذل، وقد أخذ الرعب منهم مأخذه وبلغت القلوب الحناجر، إلى أن أدركَنَا فرج الله عزَّ وجلَّ، فهدأ البحر، واستقر الفلك، ونزلت السكينة مرة أخرى إلى القلوب).

اللهم اجعلنا ممن يحفل بكتابك العظيم، تلاوة صحيحة له، وتبصراً بمعانيه وإرشاداته، وتذوقاً لروعة بيانه وسمو بلاغته، وانضباطاً بأمره وتعليماته، ولا تجعلنا ممن قلت عنهم: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٦٧-٦٨].



الكلمة معناها

أمشاج: أخلاط

ناشئة: ناشئة الليل أوائل ساعاته

غشيتنا: أحاطت بنا

كالظلل: السُّحب تبعث بالسَمُوم

استيأسوا: انقطع الأمل

أحيط بهم: اطبق عليهم

فُلكنا: سفينتنا

متبتلين: منقطعين

ناكسي رؤوسهم: منغضي رؤوسهم، كناية عن الذل

بلغت القلوب الحناجر: ارتفعت قلوبهم من الهلع إلى الحناجر، كناية عن شدة الخوف

السكينة: طمأنينة النفس



مستخلص

هذا الكتاب يقدم بإيجاز فكرة أساسية عن بلاغة الحديث الشريف كان المؤلف أعدها لطلاب الجامعة.

قسم المؤلف كتابه إلى قسمين؛ تضمن الأول ((الحديث النبوي)) دراسة لأهم ما يجب معرفته لغير المختصين، فبيَّن معنى الحديث وكيف حفظ ودُوِّن، وتناول أهم أقسام الحديث من حيث درجات الصحة والضعف، فتوقف عند أربعة أنواع منه؛ الحديث الصحيح، والحديث الحسن، والحديث الضعيف، والحديث الموضوع. وانتقل منها إلى علم الجرح والتعديل، وتحدث عن أهميته في ضبط رواية الحديث. ثم بحث في الفرق بين أسلوبي القرآن والحديث مشيراً إلى ثلاث نقاط؛ بروز الطبيعة البشرية في الحديث، موقع الحديث من القرآن موقع الشرح من المتن، خلو الحديث من خصائص الأسلوب القرآني.

وتوفر القسم الثاني من الكتاب على ((البلاغة النبوية: دراسة وتحليل)) بدأه بمقدمة في معنى البلاغة ثم بحث في القيمة البلاغية لكلام رسول الله ﷺ وموقعه من كلام العرب، وميّز من فنون الحديث النبوي بعض خصائصه التي رآها تشتمل على جوامع الكلم، وعلى الأمثلة المقربة، وعلى الوصايا والأحكام، وعلى الخطب والكتب، وعلى الدعاء والابتهال.. وختم القسم بدراسة تحليلية لبعض نصوصه وخطبه.